المصير الغامض لمكتبة الإسكندرية

المؤلف :باتريس جيورجياد

ترجمة إلى اللغة العربية

ذ . محمد الحضان

29 - 11 – 2017

المصير الغامــض
لمكتبة الإسكندرية

المؤلف ***: باتريس جيورجيادس*** (PATRICE GIORGIADES)

مع 3 الرسوم التوضيحية من قبل المؤلف وصورة إنزيت

منشورات ورشة العمل / الإسكندرية

1982

ترجمة إلى العربية: ذ محمـد الحضــان

L'ETRANGE **DESTIN**
DE LA BIBLIOTHEQUE
D'ALEXANDRIE

par

PATRICE GIORGIADES

L' ATEL1ER D'ALEXANDRIE
avec 3 illustrations par l'auteur et un portrait hors-texte
Collection d'Etudes fondée et dirigée par R. Lackany

DU MEME AUTEUR
DANS LA MEME COLLECTION
1. - Les Secrets du Phare d'Alexandrie (1978)
157 pp. + 17 illustrations dont 12 par l'auteur.
2. - L'Etrange Destin de la Bibliothèque d'Alexandrie 1982.
50 pp. + 3 illustrations par l'auteur + 1 Portrait Hors
texte 1982.
3. - Une Martyre Païenne: La Mort d'Hypatie.
16 pp. 1982.

ديمتريوس دي فالير

الإشعاع الروحي للإسكندرية في عهد البطالمة (الإشعاع الذي جعلها مركزا عالميا للروحانيات والعلوم) يعود الفضل في ذلك، إلى حد كبير إلى المتحف والمكتبة التي أسسهما **بطليموس الأول سوتر** بمشورة من **ديميتريوس دي فالير** الذي، بعد أن حكم أثينا لمدة عشر سنوات، فر منها ومن جيوش **ديمتريوس دي بوليوسيتس** ولجأ إلى بلاط **ابطاليموس سوتر**. الرجل **ديميتريوس دي فالير** كان في آن واحد، خطيبا، عالما، فيلسوفا، مؤرخا ورجل سياسية. **ديمتريوس** الملقب **دي فالير**، ابن **فانوستراتوس** كان تلميذَ وصديقَ **ثيوفراستوس**، التحق بمصر، حيث تم استقباله استقبال الأبطال من قبل **بطليموس** ابن **لاجوس**، الذي وثق به، وقربه إليه وجعله الرجل الأول في بلاطه والصديق الحميم ، كان يستشيره في أدق التفاصيل، شاركه في سَن جميع القوانين التي كان يريد أن يمنحها **لمصر**، والتي كان حديث العهد بالاستيلاء عليها.

هنا بدون شك، **ديميتريوس** ألف معظم كتبه وأعماله، وجلها كانت تتطرق إلى طريقة الحكم والتعامل مع الحكومة، وما يتعلق بأثينا على وجه الخصوص. يبدو على أن إقامة المتحف والمكتبة بالإسكندرية، كان نتيجة الإلحاح والنصح والمشورة لبطليموس عليه، من أجل استقطاب واستقبال العلماء، فأصبحت هذه المكتبة مشهورة جدا في ما بعد. ولكن ديمتريوس دي فالير لم يكن أبدا أمين المكتبة، كما يقول أريستي (Aristée) المنتحل و الكاذب. **بطليموس أراد** أن يجعل خلفا له ابنه من **برنيس**(

Bérénice) - الزوجة الثانية - على حساب أولئك الذين أنجبتهم الزوجة الأولى. **ديمتريوس** بذل كل جهده لكي يجعل **بطليموس** يعدل عن هذا القرار، ولكنه لم ينجح في إقناعه عن العدول على هذا الفعل.**بطليموس فيلادلفوس،** بعد فترة قصيرة تبوأ مقعده على العرش، الذي لم يكن لديه ما يكفي من سعة الصدر ليغفر له، هذا التحريض الذي كان ضد شخصه. من تم انحدر في السلم الاجتماعي ولم يعمر كثيرا بعد هذا الحدث ، يقال أنه توفي بسبب لدغة أفعى سامة صغيرة، ويفترض أنه انتحر.

باتريس ألفير

(1900 - 1979)

باتريس ألفير أو **باتريس جورجيادس** إسمه الحقيقي جورج **جيوجيادس** ولد في القسطنطينية في يوليو 1900. وينحدر من أسرة بيزنطية نبيلة، هاجرت إلى الإسكندرية في بداية القرن.

بعد انتهائه من الدراسة الثانوية عند « **إخوة المدارس المسيحية** » (كوليج سانت كاترين) (Collège Sainte Catherine) ، دخل إلى المحاكم المختلطة حيث بدأ مشواره المهني. ظهر ميوله وشغفه للتاريخ واهتمامه بالفلسفة والآداب والفنون الجميلة، منذ نعومة أظافره (وهو في المدرسة). أنساق نحو الفن والأدب.

رسام هاوي، وقت الترفيه اختصه للرسم. لما أغلقت المحاكم المختلطة عام 1949، حيث كان يشغل منصب الكاتب العام للنيابة العامة، تحول إلى الصحافة، المهنة كان يعزها ويجلها وإلى جانب ذلك، كان قد ساهم، بالفعل، منذ أن كان لا يزال محتلا لمقعد في المدرسة، مع "**المنارة المصرية**" وصحيفة "**معاليش**" مجلة ساخرة، ثم في مجلة "**الإسكندرية**" وبعد ذلك إلى "**الإصلاح المصور**" وأخيرا إلى "**مجلة مصر**"حيث أعطي

كامل الجهد، كناقد أدبي وفني. كتب عموده الشهير " **تذكرة من الإسكندراني** ".

بعقل ثاقب وفكر مستنير ومتأهب، بريشة خفيفة، امتلك صفات الصحفي المطلع، شعوره بالأحداث اليومية كان متسما نوع من بلمسة من الفكاهة اللاذعة ، مستوحاة من العادات والتقاليد.

مؤلف للعديد من الكتب: "**من أفلاطون إلى فرويد** "، عند فاسكيل(chez Fasquelle)،" **من اليوناني إلى العربي** "،" **الألقاب اليونانية** "، نشرت في الحياة واللغة من قبل إصدارات لاروس. "**هل أفلاطون اعتقد في الأتلانديد؟**" "**استمرار الأسماء اليونانية** "،" **الإزدواجية** "و" **أخبار فيلون الإسكندري** "التي نشرت في معهد الدراسات الشرقية. والكتاب الأخير "**أسرار منارة الإسكندرية**" المنشور بالاشتراك مع رعاية المركز الثقافي اليوناني و "ورشة عمل الإسكندرية" وفي عام 1978 حصل على نجاح متميز جدا.

عالم عظيم، باحث مرموق، له معرفة أكاديمية واسعة- أصدقائه يطلقون عليه - **الموسوعة المتنقلة** - كاتب مشهور وقد كتب **باتريس ألفير** بقلمه ونشرت مؤخرا في "**ورشة عمل**" الدفعة الأولى للثلاثية: "**أسرار منارة الإسكندرية**"، التي تلقت نجاحا كبيرا في جميع أنحاء العالم. الكتابان الآخران من هذه الثلاثية: "**المصير الغريب للمكتبة من الإسكندرية** "و" **استشهاد الوثني** ".وكتب أخرى لم تنشر.

وقد شارك في العديد من المنتديات لمنتقدي الفن والأدب، ولا سيما أنه شارك في لجنة تحكيم المنافسة الأدبية من "**الخبر**" التي أطلقتها "**ورشة عمل**" التي انطلقت في1978. خدوم، مخلص ووفي لأصدقائه، ما كان يدخر جهدا لمساعدتهم. استدعى، فأفنى نفسه دون تحفظ في لجنة تحرير منشورات "**ورشة العمل**". وكان هو من اقترح شعار (**الكلمة تتطاير، والكتابة تستقر**) لمطبوعات "**ورشة العمل**" وتم تبنيه بالإجماع.

وتوفي في فجر يوم 24 غشت 1979 عن سن يناهز 79. مع تواري جثمانه، تختفي شخصية إسكندرانية محبوبة. موته ترك فراغا كبيرا لا يمكن ملئه. نود عن طريق هذه السطور البسيطة والكلمات القليلة وهذه الالتفاتة المتواضعة، في نهاية مشواره أن نشر الكتابين الأخيرين، ذكرى لمفكر كبير وكاتب فركفوني مصري.

رادامس لاكاني (*Radamès Lackany*)

مقدمات نقدية

من بين العديد من الأسرار الموجودة في الإسكندرية القديمة، واحد من أكثر مما يلفت النظر إليه، هو، دون أدنى شك، الذي يتعلق بالمكتبة المشهورة والمصير الغريب الذي تعرضت له.

« إذا كانت المنارة قد وفرت الضوء عن طريق العين، فإن المكتبة أنتجت الفكر والذاكرة».

المكتبة تذكرنا، نوعا ما بالقصة الضاحكة لإناء **سواسونس**. من الذي كسره؟ البعض يرمي اللوم على الآخرين، والمشكلة، باختصار، لا تزال قائمة كاملة.

ولكن قبل أن نتحدث عن تدميرها، وجب علينا الحديث عن أساس المؤسسة النبيلة- التي شهرتها سافرت عبر القرون- وشرح كيفية العمل داخلها، وتسليط الضوء على أهميتها، وإبراز الدور الذي قامت به في الحضارة الإنسانية. وجب عليتا كذلك إعطاء نبذة تاريخية عن المديرين الرئيسيين، الذين كانوا أيضا من العلماء البارزين.

عندما ،في الأخير، نكون قد كونا فكرة كاملة ، قدر الإمكان، عن المؤسسة الرائعة، عندئذ سوف نتطرق للغز الدمار الذي لحق المكتبة، هذا الدمار الذي بدونه، كل الفكر الغربي يمكن أن يكون قد انخرط في مسار لا نستطيع تخيله في غياب الكتب و المخطوطات التي كانت ستوجهه في هذا المسار قد فقدت، (ضاعت أو تم إتلافها).

1

المكتبات القديمة

التاريخ ممزوج بالأسطورة، ينسب المكتبة الأولى لملك مصر الأسطوري **أوسيمانداياس**، الذي- وفقا لمعظم العلماء- لن يكون إلا الفرعون القوي **رمسيس الثاني ميمون**، الذي حكم من 1298 إلى 1232 ق . م .

ويقال أن **أوسيمانداياس**، وضع على مكتبته، النقش الجميل والنبيل: « **كنز علاجات الروح** ». ما يترجمه الإغريق بشكل أنيق في كلمتين:« *psykhês iatreion* » **بسيخيس إأتريون**.

على أية حال، في الشرق، كانت هناك مكتبات النصوص المقدسة في حرم **فتاه** Phtah، في **ممفيس** Memphis، في سوسا Suse، عند **الفرس**، في **معبد القدس**، في بعض مدن **فنيقيا** Phénicie و**قرطاج**.

وقد كشفت الحفريات الأثرية وجود مكتبات غنية جدا ومنظمة تنظيما جيدا جدا في **نينيب** Ninive و في بعض المدن الأخرى الكلدانية والآشورية. هي أيضا ضاربة في القدم ، إن لم تكن أكثر من تلك التي كانت في مصر.

في هذه المكتبات الكلدانية أو الآشورية، كانت الكتب مصنوعة من الطوب والأجور، ونوع من اللوحات محفورة بواسطة ثاقب

أو بأحرف مسمارية، ثم بعد طبخها في الفرن تصبح غير قابلة للإتلاف.

كان التعامل بها، بطبيعة الحال، ليس مناسبا ولا يسيرا، والباحث في تلك الآونة كان ينحني تحت ثقلها والتي كان عليه أن "يلتهمها". ولكن بفضل صلابتها صمدت ضد الإتلاف، السبب الذي مكننا من العثور على النصوص الكلدانية والآشورية، في حين ما بقي شيء من **البردي أوسيمانداس**.

وأقدَم مكتبة معروفة عند اليونانيين، هي **لبيسيستراتوس**، (600 - 527 قبل الميلاد) طاغية **أثينا** والناشر الأول للقصائد الهومرية (ولسبب وجيه: ذكر أسلافه). دعونا نقول، بين قوسين، أن القدماء يسمون الطاغية (tyrannos) ، الذي يمتلك السلطة العليا عن طريق الانقلاب ، وليس عن طريق البيعة والانتقال الطبيعي المرن للسلطة. **أوديب الملك** "Oedipe-roi"، في النص يكتب **أوديب ـ الطاغية** (*Oidipous tyrannos*). عند **السوفيات**، تترجم الآن: **أوديب-الرئيس** (Oedipe-président)؛ هذا لا يعني أن الطاغية كان جبارا وقاسيا أكثر من أشباه ملوك ذلك الزمن.

كما تزامنت معها مكتبة **بوليكرات** Polycrate، طاغية **ساموس** Samos، الرجل ذو الحلقة.

نعرف أيضا تلك التي كانت توجد في **كليارك لهيراكلي** Cléarque d'Héraclée، عند الجسر، لصاحبها الخطيب الكبير **ديموستين** Démosthène، الخ. مدرسة أفلاطون ما كانت لتكون

بدون مكتبة، لأننا لا يمكن أن نتصور أي تدريس، بدون خزانة للكتب والمخطوطات متاحة وفي متناول المعلمين والطلاب.

ما هو مؤكد هو أن **أرسطو** قد ألف مجموعة كبيرة من الكتب، والتي، عند وفاته، تم شراؤها من قبل **بطليموس فيلادلفوس**، لتكون متجمعة في خزانة مكتبة الإسكندرية.

مكتبة بيرغاموس Pergame ، التي أسسها **يومينس الثاني** Eumène 11 و **أتال الثاني** Attale II، الذي تمكن من جمع ما يناهز 200000 مجلد، وضعت في أروقة جميلة وكبيرة شيدت لهذا الغرض، لكي يتم منحها **لروما**. لكن **مارك-أنطوان** أهدى هذا الكم الهائل من الكتب لحبيبته **كليوباترا**. والتي هي بدورها وزعتها نصفين متكافئين بين **المكتبة - الأم** و**المكتبة - الملحقة للإسكندرية**.

كل هذه المكتبات كانت تقريبا ذات طابع خاص، في ملكية شخصيات يعني: المكتبات المقدسة لاستخدامها من طرف الكهنة، الملوك والفلاسفة وأتباعهم يستخدمون المكتبات العلمانية. **وكانت مكتبة الإسكندرية، أول مكتبة وضعت لعامة الجمهور. كل من له صفة المواطنة له الحق في ولوجها.**

كلمة المكتبة بالفرنسية bibliothèque مشتقة من **بيبليون** *biblion* وبالتالي في الفرنسية bible يعني الكتاب المقدس)، وهو ما يعني باليونانية **الكتاب** و thêkê، وهو ما يعني **خزانة، صندوق، مستودع، مكان الحفظ**. كلمة **بيبليون** في حد ذاتها تأتي من **بيبلوس**، هذا المصطلح يعني اللحاء الذي يصنع منه ورق

البردي papyrus. كلمة bible "الكتاب المقدس" لم تطبق على الكتابة المقدسة إلا منذ القديس **جيروم**.

على أي حال، عندما نتحدث عن المكتبات القديمة، الاسم الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو **مكتبة الإسكندرية** الشهيرة، التي كانت منذ ذلك الحين نموذجا يُحتذى وسقف للمقارنة بالنسبة لجميع المؤسسات من هذا النوع.

استنادا إلى الكتابات القديمة والتقاليد والأساطير، سنحاول إعادة تركيب صورة عن هذه المؤسسة التي لا مثيل لها، وذلك قبل محاولة شرح- قدر الإمكان- اختفاءها **الغامض**.

في البداية، وجب علينا أن نقول كلمة عن المتحف.

* *

*

II

المتحف

أما بالنسبة لمدرسة أفلاطون، فإننا لا نتصور تعليما جماعيا بدون مكتبة شاسعة ومنظمة تنظيما جيدا على العموم. وينطبق نفس القول على الإسكندرية، حيث كان التدريس الرئيسي يلقن في المتحف، والمكتبة كانت مكملة له ولا غنى عنها.

كلمة المتحف، (**ماوزيون** (Mouseion)) تعني: مكان " **ربات الفن"** Muses [الإلهات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم والميتولوجيا الإغريقية]. قبل أن يُطَبقَ على المؤسسة الإسكندرانية، استخدم لتعيين تَل شمال **أثينا** حيث الرواية تضع قبر الشاعر الأسطوري والموسيقي **موسيوس** Mousaios (باللغة الفرنسية: (Musée) متحف ، مثل المؤسسة، كما يأتي إسمه من Muse ، الذي من المفترض أن يكون قد عاش في زمن الملحمات البطولية وكان الكاهن الأسرار والألغاز الأول **لإلوزيس** d'Eleusis. له تنسب الأناشيد والقصائد الشعرية على الكهنة (oracles)، مبحث أصل الآلهة وتحذرهم، أطروحة على مبادئ التخلية والتنقية، كل الأعمال التي تتعلق تقريبا بالكتابات المزيفة ، والتي جمعت، منذ القرن السادس قبل الميلاد من قبل **أونوماكريتوس** Onomacritos ، تحت حكم **بيسيستراتيدس** Pisistratides.

تم تأسيس كل من المتحف والمكتبة من طرف **بطليموس الأول سوتر** ابن **لاغوس** ـ كما سبق ذكره ـ ، مثقف مرهف الإحساس ذو أخلاق عالية وفي آن واحد قائد جيش جيد ومحنك. بإيعاز من مستشاره ، **ديمتريوس دي فاليرـ** الخطيب والسياسي المرموق الذي يشد عضده ويسانده مساندة غير مشروطة.

المتحف يذكرنا، **مع ما يلزم من تبديل**-mutatis mutandis - بجامعاتنا، كل متحف يمثل مختلف الكليات. لكنه يختلف عن جامعاتنا، في كون أن للأساتذة حياة جامعية وأما الآخرين لم يكونوا مطالبين بإعطاء الدروس.

كان بإمكانهم، بطبيعة الحال، إعطاء الدروس إذا أرادوا فعل ذلك. ولكن ما كان مطلوب منهم بالأساس، هو المشاركة، كل حسب تخصصه، في تقدم الآداب والعلوم. **ولهذا، تم إيواءهم وإطعامهم على حساب الدولة.**

تم إنشاء المؤسسة داخل القصور الملكية، ربما، في الحدائق الواقعة في الجنوب الغربي من الحي الملكي **بروشيون** Brucheion- ثم أصبح **ريجيا** Regia، في عهد الرومان.

«القصور الملكية» يكتب **سترابون** Strabon، « تشمل أيضا المتحف، الذي يحتوي على كورنيش، مجلس و غرفة كبيرة التي تقدم فيه الوجبات المشتركة لعلماء اللغة الذين ينتمون إلى المتحف. واستحدث، لصيانة المعهد، صناديق استثمار مشتركة ويعين كاهن لتدبير أمور المتحف، سابقا من قبل الملك والآن من قبل القيصر ».

الكاهن (أو الرئيس)، الذي ليس له مسؤولية المراقبة على مناهج التعليم ولا على البحث العلمي ولا على العلماء، وكذلك على جميع الأعضاء، يتم تعيينهم من قبل الملك، الذي يحدد المدة التي يراها مفيدة. وكان جل العلماء الكبار يمثلون جزءا منهم ، والتقدم الحاصل الذي أحرزوه في ميدان المعرفة البشرية أمر لا جدال فيه. كل الأسماء الكبيرة لتلك الحقبة الذين مروا من الإسكندرية، تلقوا ترحيبا وعرضا لإعطاء في المتحف، الدروس في دورات، مكافأة بسخاء، وأنه، وبطبيعة الحال، إلى جانب ذاك هناك دورات تقدم من طرف الأعضاء الدائمين للمتحف.

المتحف كان يضم الكراسي العلمية التالية: الفلسفة والتاريخ الشعر، الجغرافيا، علم اللغة، **الرياضيات**، والموسيقى، والبصريات و علم انعكاس الضوء، البحث والتوسع في النقد الأدبي، وعلم التشريح، والطب، الخ.، وكذلك مدرج للتشريح، ومرصد للمراقبة الفلكية، وحديقة للنباتات والحيوانات غير المعروفة والنادرة، لا ننسى، كما سبق ذكره، المكملة للمتحف التي لا يمكن الاستغناء عنها، **المكتبة**.

هذه الحياة المشتركة، وخاصة، هذه الوجبات الجماعية حيث المناقشات بين العلماء تنحو منحاها، وبطبيعة الحال، لا تخلو من مزاح ومن لطائف ومفارقات مفيدة، بعض الأحيان تولد خيوطا موجهة، كل واحد في تخصصه، آداب وعلوم.

تيمون دي فليونتي Timon de Phlionte، تلميذ **لبيرون** Pyrrhon، مؤلف "silles "، (القصائد الساخرة الصغيرة)، سخر من نزلاء المتحف بنعتهم " **بجرداان المكتبة**" و"**المهرجين**

والمنفرين"- (ربما لأنه لم يتم قبوله بالمعهد) ، و"في مصر المكتظة بالسكان، يكتب ؛ بطريقة مألوفة في إحدى قصائده الساخرة ، « نطعم أنصاف الكتاب عصيدة، فينعكس نهمهم على قراءة بالغة للكتب، وإذا دنوت منهم، سمعت خشخشة دجاج في قفص المتحف، لا تفتر».

غير أن الخدمات التي قدمها المتحف قد تبينت أنها ثمينة جدا وأثبتت نجاعتها، لدرجة أن المتحف حافظ على تقدير واحترام الأباطرة الرومانيين للروح العملية البارزة، الذين أعطوه الدعم والحماية. تحت **الأنطونيين** زادت الامتيازات.

إن أعضاء المتحف تم تجميعهم في"جمعيات متميزة " (بمثابة الكليات في واقعنا)، وفقا لطبيعة تخصصاتهم. وكانوا جميعا في منأى من كل قلق مادي، يحصلون على حصص من الخزينة العامة وراتب من الخزينة الملكية.

للاستفادة من كتابات وإنجازات أسلافهم أو تسجيل مؤلفاتهم وحتى يتسنى لهم التوثيق و البحث بسهولة في جميع المراجع والمخطوطات الهامة في الفلسفة والأدب والعلوم، وضعت هذه المكتبة الشهيرة تحت تصرفهم، والتي سنتحدث عنها، الآن، وعن بناياتها التي- كما في اعتقادنا- لم تكن بعيدة عن المتحف.

III

الولادة والتنمية

مؤسس المكتبة، بطليموس الأول، نائبه **ديميتريوس دي فالير**، المستشار الأول ، يقال، أنه كان بالفعل قد جمع 200000 مجلد. **بطليموس فيلادلفوس** Ptolémée Philadelphe قد ضاعف هذا الرقم. كما قلنا، كان قد اشترى، من بين المكتبات الأخرى، إحدى أهم المجموعات من الكتب للعالم أرسطو.

في نهاية عهد **بطليموس فيلادلفوس**، المكتبة أصبحت تضم ما يقرب من400000 مجلد "مختلط" و 90000، "غير مختلط" و من "غير المختلط"، ***المحتمل هو أنه يجب فهم أن المجلدات هي أصلية ومن مختلطة ، نفهم على أنها مكونة من الكتب الأصلية ونسخها المزدوجة وإما النسخ البسيطة من هذه الكتب الأصلية.***

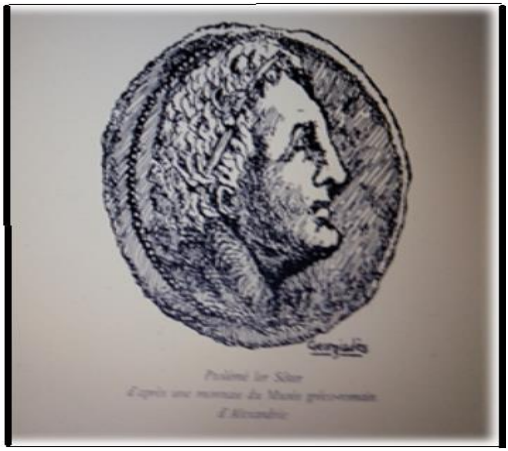

بطليموس 1 سوتر وفقا لعملة من المتحف اليوناني الروماني الإسكندرية

ومع تزايد عدد المجلدات، تم نقل النسخ المزدوجة إلى المكتبة الملحقة الشهيرة، التي كانت قد أنشئت في **سارابيون** Sérapeum) Sarapeion باللاتينية)، معبد الإله المصري-اليوناني **سارابيس**، الذي بني في قلب حي شعبي، **راكوتيس** Rhakôtis.

إن المكتبة- الملحقة، حصلت على مكانة مرموقة في العصر الروماني، وكانت تضم - في هذه المرحلة - ما يقارب من 42800 مجلد. أحرقت، مع كل ***السارابيون*** Sarapeion ، من قبل البطريرك المتعصب **ثيوفيلوس** Théophile، في القرن الرابع من عصرنا.

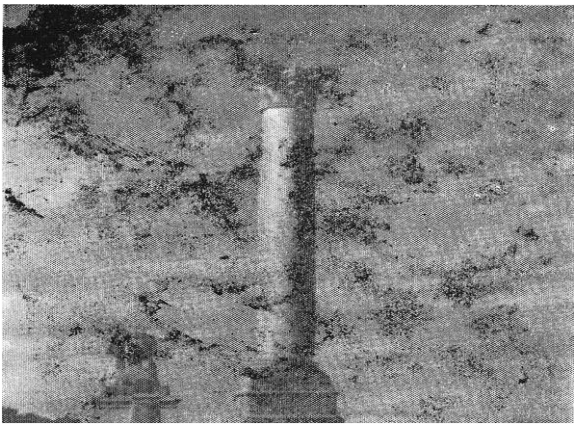

من السرابيون كله لم يتبقى إلا العمود العملاق ، (26 م 85سم)، مكون من وحدة متجانسة من الحجر وضع عند سفح المعبد، تذكار **لديوكليتيان** Dioclétien ويدعى خطأ عمود **بومبي** Pompée . تحدى الزلازل وانجراف التربة وكل أنواع عوامل التعرية، إنه يقف صامدا في شموخه، حتى الآن، بكتلته التي فرضت نفسها. تحته قليلا، نحو الغرب، وجدنا مغارات غامضة وغرفا صغيرة، سجونا انفرادية، ومحاريب غريبة ومن نوع خاص، لم تستعمل لمحافظة المومياوات ولا لمقابر ولا لجرار جنائزي. من هنا، قد استنتج بعض علماء الآثار أن هذه المحاريب كانت خاصة، تستخدم لتخزين مخطوطات وكتب ومجلدات المكتبة الملحقة ويبقى إثبات ذلك؛ لأن هذه السراديب على ما يظهر، أن درجة الرطوبة بها كبيرة جدا ولا تصلح لهذه المهمة.

لم يتردد البطالمة بأي شكل من الأشكال لكي يزيدوا من مجموعات الكتب وجلبها لمكتباتهم.

دفع بطليموس ايفروجيت Ptolémée Evergète **بأثينا** 15 **تالان** ذهبا، كفالة من أجل يُرسل إليه أعمال: **إشيل** d'Eschyle ، **سوفوكليس** Sophocle وأعمال **إيوريبيدس** Euripidé، لاستنساخها. ثم فضل الاحتفاظ بالأعمال الأصلية والتخلي عن الكفالة.

أصدر قانونا ينص على أن كل مسافر، نزل بالإسكندرية، أو مر بها، عليه أن يتنازل لمكتبة الإسكندرية، عن المخطوطات التي في حوزته مع تمكينه من نسخة عن كل مخطوط.

وحدث أن أحد البطالمة، الغيور على مكتبته، ورغبة في القضاء على كل منافس، قام بحظر تصدير ورق البردي، الذي ينتج حصريا في مصر.

وكان الضحية الكبرى لهذا المنع هو الملك **بيرغامون** Pergame - المهووس بجمع المخطوطات- وجاء رد فعله على أن طور صناعة **البرشمة** *parchemin*، الذي اسماها منذ ذلك الحين ، باسم مستوحى من بلده (pergaminê) ،(**بيرغامينيكا** غشاء، باللغة اللاتينية).

قدسية البطالمة للمخطوطات والعمليات - معلومة صادقة تقريبا- المستعملة من طرفهم، و المكتبة الأم وحدها قربت من امتلاك قبل سنوات قليلة من وفاة **خوليوس القيصر**، العدد الرائع في تلك الفترة 700000 مجلد.

الدكتور إيف. بريشيا Ev. Breccia (الإسكندرية المصرية (Alexandrea *ad JEgyptum)*) يلاحظ أنه ربما، المحررون القدامى، لإصدار هذا الرقم الهائل، كانوا يحسبون المخطوطات عن طريق لفات كتاب وليس عن طريق مجلدات. لفة تتكون من كتاب (أي فصل من مجلد)، سيكون من الضروري، في هذه الحالة، أن نحسب 48 لفة **لهوميروس**، 40 **لبوليبيوس**، 10 **لجمهورية أفلاطون وحدها**، وهلم جرا. هذا من شأنه يحد من عدد المخطوطات. و سيجعل مكتبة الإسكندرية، في مرتبة المكتبات الأخريات ، وبذلك لن تكون مركز الاهتمام والإعجاب، كما كانت وكما صورها لنا المؤرخون القدامى.

يتبين أن هذه الأطروحة تم التخلي عنها، وليست رصينة ولكن عَدُّ الكتب كان عن طريق المجلدات وعدد الكتب كما ذكر من قبل.

ونحن نعلم أنه في هذه الفترة، كانت المخطوطات تتألف من شرائط البرديات أو من ورق **البارشامين** parchemins، وفي الغالب، من ورق طويل ملفوف حول قضيب مركزي، مصنوع من الخشب أو المعدن والمحفوظ، في غمد على شكل أسطوانة، محكم الإغلاق.

كانت الكتابة، بشكل عام، تتم على شكل أعمدة ضيقة، عمودية على الطول. باللاتينية تدعى "حجم volumen (ومنها اشتُقت الكلمة بالفرنسية: volume)، وهو ما يعني: **لفة.** لم يُتَمكن بعد من تسميتها مجلد أو كتاب، لأن التسفير بالمعنى الحقيقي للكلمة لم يظهر إلا في القرن الثاني بعد الميلاد، على الرغم من أنه- ومنذ فترة طويلة- المربعات الكبيرة مع غلاف سميك من الخشب أو المعدن (كوادراتي كوديسس quadrati codices) كانت تستخدم من طرف اليونانيين و الرومان للإحصاءات وحساب ميزانيات الدولة.

لذلك عندما نمثل الفلاسفة القدماء(لاسيما أرسطو) بكتاب في متناول يده، نقترف مفارقة تاريخية حقيقية.

كما تضمنت مكتبة الإسكندرية أيضا قسم خاص للترجمة. أشهر هذه الترجمات هي ترجمة الكتب المقدسة العبرية، (الترجمة السبعينية).

- لاحظ الكتابة في الأعمدة الضيقة والعمودية

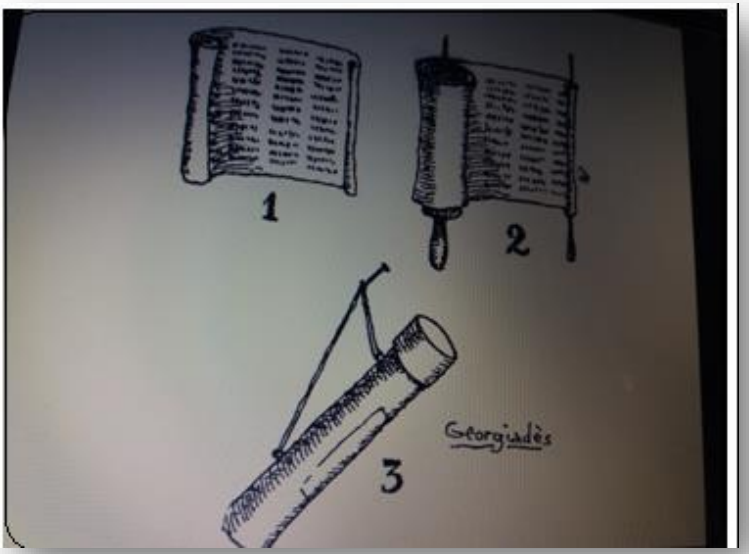

- 1) البردي أو "فيلم قصير".
- 2) الجذع المركزي أو "فيلم روائي".
- 3) حزام البردي.

IV

بعض مديري المكتبة

ومن الواضح أننا لا نعرف اسم جميع مديري المكتبة، الذين نجحوا في مهمتهم، في والذين حملوا الإسم المتواضع أمين المكتبة (bibliophylax أو bibliothécariosأوbibliothécaires).

يمكننا أن نذكر عددا قليلا من كبار المسؤولين الذين تجاوزت أعمالهم مجرد العبء الإداري البسيط الشيء الذي جعل سمعتهم تسمى لتصل إلينا.

هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن المديرين الذين لم تصلنا أسماؤهم، كانوا غير مؤهلين. وظيفة طويلة متدرجة مثل وظيفة المؤسسة اللامعة وتدرجها، يتيح التخمين بسهولة أن الملك - و بعده الإمبراطور – يحسن كيفية اختيار موظفيه، و كلهم كانوا في مستوى المسؤولية النيلة الملقاة على عاتقهم.

لنرى بعض أبرز هؤلاء الأمناء للمكتبة الشهيرة:

- **زينودوت إفسس** *Zénodote d'Ephèse*

الشاعر والنحوي المعروف. النحوي عند القدامى يعني: الكاتب والناقد، وعالم اللغة. أما الذين نسمي اليوم النحاة، كانوا يسمون "معلمي القواعد النحوية grammatiste". يبدأ الطفل

الخطوات الأولى في التعليم مع **معلم القواعد النحوية**، ثم، كشخص راشد، يواصل تعليمه مع "**النحوي**".

عاش زينودوت في القرن الثالث قبل الميلاد كان مريدا **فيليتاس دي كوس** Philétas de Cos، الشاعر والنحوي، شيخ **بطليموس فيلادلف** و **ثيوكريتوس** أيضا. كانت قصائد الغزل المؤثرة **لفيليتاس** تحظى بشعبية كبيرة عند الرومان.

واهتم زينودوت بتعليم أطفال **بطليموس سوتر**. وخصوصا **بطليموس فيلادلفوس**، الذي اشترى، بعد موت أرسطو، كل كتبه و شكل بها مجموعة كبيرة من المخطوطات، التي ضمها إلى مكتبة الإسكندرية

لدينا أيضا بعض الأناشيد ولوحات ملحمية صغيرة، نُشرت بها تفاصيل مألوفة، تجسد فكرة عن الشعر الإكسندراني.

ويعتبر كاليماشوس Callimaque زعيم هذا الشعر الإكسندراني، الذي هو في آن واحد، روحي ، خفيف، دقيق ،نفاذ، علمي مُصقل وعميق للغاية. جميع الشعراء الذين يحاكونه، يطلق عليهم شعراء الكليماركيين (Callimaquiens Kallimakheioi)، يحملون هذا الاسم باعتزاز. المتعلم غالبا ما يفوق معلمه، وطلاب هذه المدرسة تخطوا صنعة كاليماشوس فأبدعوا ونظموا قصائد على شكل أهرامات، أشجار، شراع، الخ.

كاليماشوس قام بتحرير بيان نقدي للمكتبة ثم أنشأ فهرسة وصنف محتواها حسب ترتيب المواد والتخصصات.إنه عمل

موثق توثيقا أكاديميا والذي اعتبر بمثابة أساس لتاريخ الأدب الإسكندراني، وكان على تابعيه أن يتمموه.

- **إيراتوستين دي سيرين** *Eratosthène de Cyrène*

إراتوستين خلف **كاليماشوس**. ولد في **سيرين**، في 276 قبل الميلاد، توفي حوالي عام 196. تلميذ **أريستون دي تشيوس** d'Ariston de Chios، و **ليسانياس دي سيرين** Lysanias de Cyrène، ثم، تتلمذ على يد **كاليماشوس**، كان عبقريا نادرا ، ذي مواهب متعددة. في نفس الوقت **محدث وخطيب** بارع، **شاعر**، تاجر في الأشياء العتيقة والتحف التاريخية؛ (كان لديه بالفعل، في الإسكندرية)، **عالم في الرياضيات** و**فيلسوف. تألقه في هذه الفروع الخمسة، جعلته يحضا بلقب بينتاثلوس** *pentathlos* الذي لا يحصل على هذا اللقب إلا الفائز في خمسة مباريات في دورة **الألعاب الاولمبية**.

عاش في **أثينا** وكان معروفا بها، عندما دعاه **بطليموس إيفرجيت** إلى الإسكندرية، لتعيينه مدير **المكتبة**.

ويعتقد عادة أنه اخترع الآلة القديمة لمراقبة الاعتدال والانقلاب، وأدوات فلكية لمراقبة النجوم والأجرام السماوية التي استعملها علماء الفلك لمدرسة الإسكندرية، استخدموها لفترة طويلة، على رأسهم **هيبارتشوس** (Hipparque).

وكانت أهم اكتشافاته تدور حول تحديد الميل الكسوف على خط الاستواء وقياس خط الطول الأرضي. ويعتبر، من هنا، كما والد **الجيوديسيا** (géodésie).

ويذكر بابوس Pappus عنه "من موقع "ميديتاليس"

De locis ad medietales"، الذي كان، ربما يتعلق بمسألة تضعيف المكعب، المسألة التي كتب عنها قصة **لبطليموس** والتي حاول حلها **أفلاطون**. هذه المسألة التي فتنت كل العصور القديمة ، تدعى أيضا "مشكلة **ديلوس** Délos " (لأن سكان **ديلوس** الراغبين تقديم الطاعة **للكاهن الأكبر**، وجدوا أنفسهم محرجون جدا أمام مضاعفة مذبح **أبولو**). منذ **أبقراط دي شييو**، تم تبسيط المسألة إلى إيجاد وسطي التناسب بين ضلع المكعب وضعفه.

إراتوستين أبدع كذلك "**غربال**"(**كوسكينون** Koskinon) ، طريقة معروفة لإنشاء الأعداد الأولية.

من بين الأعمال المفقودة أو تلك التي لا نملك منها إلا شظايا فقط، نذكر اقتباس الجغرافيين **بوليبيوس، سترابون، مرسيان** و **بليني** كانوا يستلهمون عنه **الكرونوغرافيا**(*Coronographie*) ، [حيث كان يحاول تحديد التأريخ الدقيق للأحداث الرئيسية في التاريخ] و أطروحته حول الكوميديا اليونانية، الخ.

القائمة، كاملة قدر الإمكان، من الأعمال المنسوبة إليه، من قبل **برناردي** Bernardhy ، في "**إراتوستينيكا** Eratosthenica" "، **برلين** 1822.

- **أبولونيوس من رودس** *Apollonios de Rhodes*

الشاعر والنحوي، ولد حول منتصف القرن الثالث، في **نوكراتيس** Naucratis ، أنشئت هذه المستعمرة اليونانية قبل مؤسسة الإسكندرية، على فرع الكانوب في النيل.

جاء إلى الإسكندرية في عهد **بطليموس إيفرجيت** Ptolémée Evergète حوالي 220 م، **أبولبنيوس** أصبح مريدا **لكاليماشوس** Callimaque . لم يمض وقت طويل حتى اختلف مع شيخه، فبدا بينهما نوع من " مشاجرة القدماء والمحدثين" وهو ما يصطلح عليه بصراع الأجيال.كاليماشوس ادعى أنه يجب احترام وإجلال الشعراء الملحميين القدامى، بكل تأكيد، لكن هذا الإعجاب يجب أن يكون بعيدا عن التقليد. وأكد **أبولونيوس** العكس. وكتب، في الواقع، قصيدة ملحمية في أربع أغنيات، **"أرغونوتيكس"**، استنادا إلى الأسطورة والمغامرات **لأرغونوتس**.

وقد استقبلت القصيدة، في الإسكندرية، ببرودة و تم انتصار **الكاليماركين**. المؤامرة ضد **أبولونيوس** التي يقودها **كاليماشوس**، أجبرت مؤلف **"أرغونوتيكس"**إلى اللجوء إلى **رودس** Rhodes، حيث قصيدته وجدت ترحابا كبيرا، ثم أصبح مدرسا ناجحا.لعلم الخطابة؛ من هنا يأتي لقبه **"روديان** ."Rhodien

عندما توفي كاليماشوس، عاد **أبولونيوس** إلى الإسكندرية، حيث عينه **بطليموس إبيفانيس** Ptolémée Epiphane أمين المكتبة سنة 196م.

وقد كتب العديد من القصائد والتعليقات النحوية على الشعراء القدامى، وقصائد هجاء ضد **كاليماشوس،** الخ . مثقف ثقافة عميقة، يمتلك لغة مطواعة، تأثر كثيرا **بهوميروس** Homère .

عمله الرئيسي، "أرغونوتيكش"، نوع من المزمن متنوعة، يحتوي على بعض المقاطع مؤلفة تأليفا محكما وروحية، ولكن لم تكن له ميولا وطنيا ولا وحدة ملحمية. ومع ذلك، فإن تحليله النفسي للحب ممتاز **لمدية** Médée (الأغنية الثالثة) كان جديدا بالنسبة لهذا النوع من الأدب. **فيرجيل** Virgile قد اقرضه الكثير في ديدو والكتاب الرابع من **إينيد** *l'Enéide* تقريبا مأخوذ كله من الأركونوتيكا "Argonautica"

أريستوفان البيزانطي *Aristophane de Byzance.*

أريستوفان النحوي الشهير (لا ينبغي الخلط بينه وبين المؤلف الفكاهي)، ولد في القرن 3 قبل الميلاد في بيزنطة. استدعي إلى إلى الإسكندرية من طرف **بطليموس إيفرجيت** Ptolémée Evergète. كان معلم الناقد العظيم **أريستارك** Aristarque، الذي خلفه على المكتبة.

اشتغل على وجه الخصوص، ناقدا لنصوص **هوميروس** وعلى عدد كبير من الشعراء.

ونحن مدينون له بالشكل وعلامات الترقيم و الوقف. لأن الإغريقيين جبلوا على النطق الصحيح والواضح للغتهم و على وضع النبرة الصحيحة والمناسبة بطريقة فطرية، وعلى استعمال حركات اليد وملامح الوجه وطرق أخرى لجعل الخطاب أكثر وضوحا وعقلانيا.

مع فتوحات الإسكندر، تم انتشار اللغة اليونانية، في شكل أكثر بساطة (اللغة المشتركة: koinê) في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، و حتى في آسيا. ليسهل استعمالها من طرف "البرابرة"(مشتقة من"البرابرة" يعني "مخمغم")، **ارستوفان** ابتكر ، بقواعد معقدة جدا، للشكل وعلامات الترقيم التي تمكن من النطق السليم للغة اليونانية. بعد عدة قرون، أصبحت العديد من اللغات الأوروبية تقلدها وتحاكيها. ضاعت جل أعماله، باستثناء بضع شظايا قصيرة.

- **أريستارك ساموثراس** *Aristarque de Samothrace*.

أريستارك (لا ينبغي الخلط مع **أريستارك من ساموس**، الفلكي) ولد في جزيرة ساموثراس، حوالي 180 قبل الميلاد. كان المعلم الخاص لأطفال **بطليموس فيلوميتور**، الذي عينه مدير المكتبة.

في شيخوخته، تعرض للاضطهاد من قبل **بطليموس فيسكون**، الذي كان غاضبا وحاقدا على جميع المثقفين.**أريستارك** فكاهي ومرح ككل الإسكندرانيين، ألم يلقب ، بسبب سمنته،

فيسكون(وهو ما يعني: الكرة من الشحم)؟ **أريستارك** لاذ إلى **قبرص** Chypre حيث توفي مُسْتَسْق (hydropique) في سن يناهز 72 سنوات.

وقد أنشأ طبعة ممتازة **لهوميروس**. كان صارما في تنقيح النص، وصحح بذكاء أخطاء النُّساخ، حذف بلا هوادة الفقرات المشكوك فيها، أو المحرفة، (له "خناجر الخيانة obèles d'infamie" دبوس - السهم على شكل شريط بعلامات، هذه المقاطع المميزة ، ظلت مشهورة). اكتشاف مخطوط **هوميروس** في **البندقية** في عام 1871، تحتوي على كثير من تصريحات **أريستارتك**، كشفت إلى المحدثين علمه العظيم.

يطلق اسمه على الناقد الحاد ولكن العادل، عكس الإسكندري الآخر ، **زويل** Zoïle، الناقد الحسود و البخيل.

*

* *

بالأسماء القليلة والملاحظات الموجزة والمقتضبة التي ذكرت، نرى أن أمين مكتبة الإسكندرية لم يكن مجرد موظف بسيط، تقتصر مسؤوليته على المحافظة وعلى تصنيف وترتيب مجموعة من الكتب.

في إطار توثيقي جدير بهؤلاء،نقول: «إنهم كانوا باحثين مرموقين وعلماء مستبصرين وكانوا في مستوى الكنز الذي

أسند إليهم، أمناء على الكنز الذي لا يقدر بثمن، حتى أنهم كانوا يعملون على إثرائه بإنتاجاتهم الفكرية وابتكاراتهم الذاتية».

نبقى مندهشين أمام هؤلاء الرجال الذين استطاعوا أن يوفقوا بين تجميع هذا الإنتاج الفكري وهذه الابتكارات الجمة، و مسؤولية تدبير المكتبة، وفي وسط فكري مشتعل، غير مستقر والذي هو في تطور مستمر. وظيفة بعيدة على أن تكون براتب بدون عمل (وظيفة شبح كما نطلق عليها في بيتنا المغربي).

تصوروا معي ولو للحظة فقط **بيرغسون** Bergson ، **باستور** Pasteur ، **جيد** Gide، الخ. أمناء المكتبة الوطنية في **باريس**، دون استصغار حجم العمل والتأليف الذي على غراره أصبحوا مشهورين...

هنا هو النص المعني بالأمر. **يودور** هو الذي يحكي.

::

V

حكي ذي يودور D'EUDORE

بكل تأكيد يمكن أن تكون كاتبا عظيما، دون أن تكون على دراية جيدة بعلم الآثار. ما هو مطلوب من الكاتب، على كل حال، هو أن يثير في القارئ العواطف بأسلوب مرهف، أنيق، متناغم وحذق.

ولكن لا بد، للكاتب الذي يتمتع بضمير متوقد وحي، عندما يتطرق لمرحلة ماضية، من أجل سردها يجب أن يوثق لهاته الحقبة بجدية، لتجنب الأخطاء، حتى لا يبدو وكأنه يسخر من قرائه.

قلت وقد قيل، **شاتوبرياند** Chateaubriand تطرق لمدينة الإسكندرية بشكل عام والمكتبة على وجه الخصوص. كمثال،هذا النص، للكاتب العظيم مليء بالأخطاء، لو كان أقل انشغالا

بالتنميق الجميل للمراحل الطويلة، لاستطاع تفاديها ، بقليل من الاهتمام والتفكير.

النص الذي نشير إليه، هو فقرة من (الكتاب الحادي عشر/ الشهداء). إحدى شخصياته، **يودور** Eudore، نزل بالإسكندرية، في فترة **ديوكليتيان** Dioclétien. هذا الإمبراطور عاش من 245 إلى 313 م، وحكم من 284 إلى 305. عصر الشهداء، الذي لطخ اسمه، بدأ في 303 واستمر حتى 311**م.**

هذا هو النص المعني بالأمر. **يودور** Eudore هو الذي يتحدث.

*****

« **فجر** اليوم الثالث عشر، جَمَّلَ السماوات وأضاءها، حينها رأينا في الأفق، على طول امتداد الأمواج، رأينا شاطئا منبسطا مقفرا ومهجورا. من وراءه، سهل شاسع من الرمال، سرعان ما جذب انتباهنا عمود عال. البحارة ، على التو، تعرفوا على عمود **بومبي** Pompée؛ يُخلد اليوم، **ديوكليتيان** Dioclétien من طرف محافظ مصر، **بوليون** Pollion. توجهنا نحو هذا النصب التذكاري ، الذي يعلن للبحارة الاقتراب من المدينة، **"بنت الإسكندر"**، التي شيدها المنتصر **لأرابيل** Arbelles، لتكون قبر المهزوم **دي فارسالي** Pharsale. أرست السفينة غرب المنارة، في الميناء الكبير للإسكندرية. **بيير** Pierre، أسقف هذه المدينة الشهيرة [كان هناك بالفعل، من 300 إلى 311، بطريرك من الإسكندرية اسمه بيير لير. لمرة واحدة، ما دقة!] رحب بي بحفاوة الأب، المستقبل لأبنه بعد غياب طويل.

استضافني بجناح مباني عمال الهيكل؛ ولكن علاقتي بأقاربي الذين حجزوا لي البيت **لأكاتيان** AEcaterine الجميلة والمتدينة، جعلتني أنساق وأختار اختيار الأقارب.

« **قبل** الالتحاق **بديوكليتيان** Dioclétien، في صعيد مصر، قضيت بضعة أيام في الإسكندرية، لزيارة عجائبها. أثارت المكتبة إعجابي. كان يدبر شؤونها العالم **ديديمي** Didyme، الخليفة الفاضل **لأريستارك** Aristarque. بها التقيت بفلاسفة من جميع أقطار المعمور، والرجال الأكثر شهرة من كنائس أفريقيا وآسيا: **أرنوب** Arnobe قرطاج Carthage، **أثناسيوس** Athanase من الإسكندرية، **يوسابيوس** Eusèbe من القيصرية، **تيموثي** Timothée، **بامفيل** Pamphile، كلهم مناصرون للديانة المسيحية، أطباء أو مبشرين ليسوع المسيح. **فيليدا** Velléda الضعيف المخدر، لا يجرأ رفع رأسه في مجتمع أولئك الرجال الأقوياء الذين هزموا وعزلوا المشاعر والهوى، مثل أولائك الفاتحون الذين أُرسلوا من السماء لضرب مبادئ **العصا والسياط**، ووضع القدم على رقبة الملوك، من أجل نصرة الحق والعدل والمساواة. في ليلة من هذه الليالي، بقيت تقريبا وحيدا في مستودع العلاجات و**سموم الروح**. من أعلى معرض الرخام، شاهدت الإسكندرية المضاءة بالأشعة الأخيرة لليوم ، قبل المغيب، تأملت في هذه المدينة التي يقطنها مليون نسمة من الرجال، والتي تقع بين ثلاثة صحارى: البحر، رمال ليبيا ومدينة **نكروبوليس**، مدينة الموتى كبيرة كمدينة الأحياء. سَرَحَتْ عيناي ، تجولت على العديد من المعالم الأثرية، المنارة، العريش ، حلبة سباق الخيل Hippodrome ، قصور البطالمة،

إبر **كليوباترا**؛ نظرت إلى هذين الميناءين الممتلئين بالزوارق والسفن، هذه الأمواج الشاهدة على الأريحية والشهامة والبل لأول القياصرة، والألم الشديد **لكورنالي** Cornélie. حتى شكل المدينة أبهرني، يرتسم أمام عيني وكأنه درع مقدوني فوق رمال ليبيا، إما أن لنتذكر مؤسسها، وإما لنقول للمسافرين أن أسلحة البطل اليوناني كانت مثمرة، وأن رمح الإسكندر كان يفرخ المدن في الصحراء، كمثل حربة **منيرفا** Minerve التي تخرج شجرة الزيتون المزهرة من حضن الأرض..

أستغفرك ربي، على هذا الاقتباس، من مصدر غير نقي ومدنس.. **بكل إعجاب** للإكسندر، دخلت المكتبة؛ اكتشفت غرفة لم أكن قد زرتها يوما من قبل. في نهاية هذه الغرفة، رأيت **نصبا** صغيرا من الزجاج، يعكس أشعة الشمس الملتهبة، رغم أنها، أثناء مغيبها، تتسرب من نافذة. دنوت من النصب. كان نعشا: الكريستال الشفاف يمكن من رؤية ما بداخله. أرى في أسفل هذا النعش ملكا مات في مقتبل عمره، على جبينه طوق من ذهب، ومحاط بجميع علامات السلطة. ملامح **وجهه** الجامدة لا تزال لها مميزات حافظة لآثار عظمة الروح التي تحركها. يبدو وكأنه ينام نوم أولئك البواسل الذين سقطوا قتلى، والذين وضعوا سيوفهم تحت رؤوسهم »...

•
• •

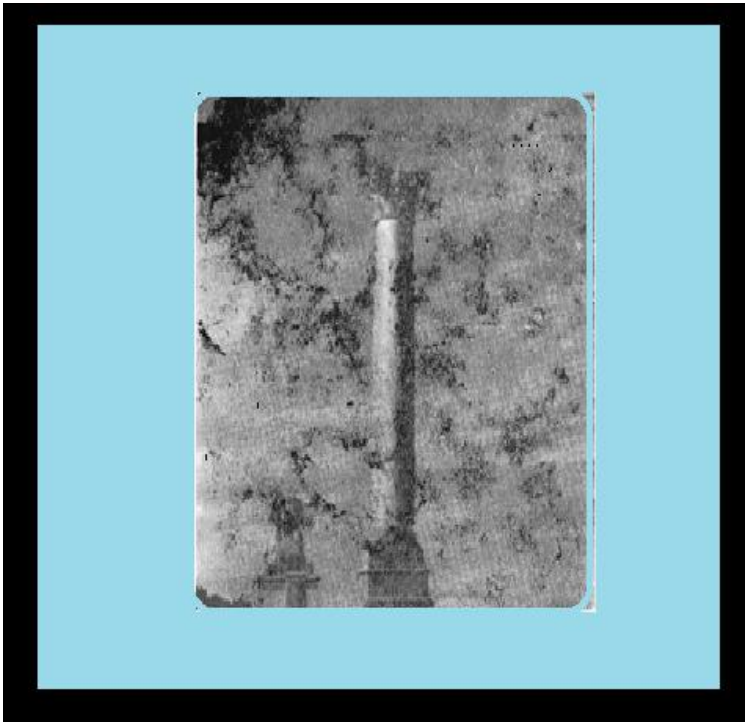

عمود مثير للإعجاب. نصب أقيم على شرف **ديوكليتيان**، ارتفاعه 26 مترا 85. غمده من **الزيينيت** syénite ، ورأسه من **البازالت** basalte. ثلاثة درجات كلاسيكية(مذهب، أيوني،

كورنثي)، سيكون من الضروري إضافة رابعا، الدرجة الإسكندرانية، بغمد متجانس ، بدون مزامير وبرأس **كورنثي**.

وضع هذا العمود عند سفح **سرابيون** وظلت معجزة، صامدة حتى يومنا هذا. وزنه الضخم كان عائقا أمام مشاريع محاولة نقله لباريس، تمت هذه المحاولات، تحت لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر، وكذلك في حياة نابليون، الذي أراد، قبل مغادرة مصر يصطحب هذا العمود معه إلى باريس.

صحيح أن البحارة، قبل بناء المباني الحديثة والعمارات الشاهقة، كان بإمكانهم مشاهدة العمود العملاق**(بومبي** Pompée**)** من بعيد، على الرغم من أنه يقع جنوب المدينة. حتى اليوم، يسمونه العرب **"عمود الصواري"**، عمود القطبين (صواري السفن).

ولكن في حقبة **ديوكلتيين** Dioclétien، لم تكن تسمى بعد عمود **بومبي** Pompée، وهذا الاسم، لذلك، هو مفارقة تاريخية على لسان **يودور** d'Eudore **.** الاسم أسند له من طرف الصليبيين، الذين كانوا يعتقدون أنها تحمل رماد **بومبي** Pompée. وكان هذا الأخير فعلا قد قتل في الإسكندرية، من قبل الجنرال ووزير بطليموس، هذا **أشيلاس** Achillas، الذي كان بربد أن يستولي على جيل القيصر Jules César على الرعن- **لوشياس** Lochias . ولكن قبر **(هيرون)** كان يوجد في غابة **نيميسس** Némésis شرق المدينة.

وقد شيد العمود لكي يكون نصبا تذكاريا **لديوكليتيان** Dioclétien، وشهادة امتنان واعتراف بالجميل، لكونه كان متساهلا وسمحا، أثناء الفتنة. بل أكثر من ذلك، وزع القمح على السكان الذين قاتلوا ضده. حمل السكان تمثاله. بعض المهتمين بجمع التحف يَدَّعون أنهم عثروا على بعض شظاياه.

في مذكرة، **شاتوبرياند** Chateaubriand يفتخر بأنه كان السباق لترجمة الكتابة اليونانية التي توجد في أسفل العمود إلى الفرنسية.

ومع ذلك، إنها ليست حول **بوليون** Pollion، كما يؤكد **شاتوبرياند** ، ولكن هي **لبوستوموس** Postoumos. تم إتلاف المقطع الثاني وقد أعيد ترميمه من قبل علماء الآثار. وهذا هو محتوى النقش: « للإمبراطور العادل، إله الإسكندرية، **ديوكليتيان** Dioclétien لا يقهر، (بوس -Pos) (توم- toum) (أوس -os)،محافظ مصر. (ضمنيا: محافظ مصر يهدى هذا العمود)».

ميناء الإسكندرية العظيم، في هذا الوقت المفترض- فترة **يودور**، لم يكن غرب المنارة، ولكن في شرقها. إلى الغرب، كان ميناء **يونوستوس** Eunostos.

وفيما يتعلق بالمكتبة، هناك خلط. إلى جانب ذلك، أية ديديم نعني ؟ هناك ثلاثة، كلها إسكندرانية.

أولا، النحوي الملقب **تشالسنتير** Chalcentère (بأحشاء من البرنز). وجب تنحيته، لأنه كان معاصرا **لشيشرون** Cicéron.

ثم كان هناك **ديديم** (**أريوس** Arius)، الفيلسوف، مؤلف المذهب: *l'Epitome* حيث يلخص **أفكار الأفلاطونيين، والأريسطو طاليسيين** ، و**الفيثاغورسيين**، أيضا، و**الستوسيسان**. وهذا أيضا سيتم فصله، لأنه كان المعلم والصديق **لأوغسطس** Auguste ،يعني أنه عاش في عهد سابق.

باستعمال مبدأ الإقصاء، بقي **ديديما "الأعمى"**، عالم **اللاهوت** والمسيحي(331 م - 388م)، عالم كبير، مدير المدرسة المسيحية في الإسكندرية، الذي كان معلم **سان جيروم** saint Jérôme، من **روفينوس دي بالاديوس** de Palladius de Rufin. حكم عليه في 553 م، مع **أوريجينوس** Origène، لجرأة نظرياته. لقد وصلنا منه: الترجمة اللاتينية لكتاب عن الروح القدس، أطروحة على الثالوث وبعض الكتب الأخرى.

لكن هذا **الديديما** ولد في 311 م، يعني قبل عهد **ديوكليتيان**. موت هذا الإمبراطور، تزامن مع ولادة **الديديما**. أيمكن أن يجتمع **يودور بديديمي** في الإسكندرية و**بديوكليتيان** في صعيد مصر؟

ثم، اللاهوتي المسيحي، مؤلف أُطروحات حول الروح القدس والثالوث إذا لم يتمكن حتى من الجلوس في مكتبة المتحف، أيمكنه تدبيرها ؟ أكثر من هذا ، هل يمكنه أن يكون خلفا

لأريستارخوس Aristarque ؟ لأن في ذلك الوقت، كان المتحف، لا يزال تحت نفوذ **"الوثنيين"** (إثنيكوي، مواطنون *).

(*) في الفرنسية "gentils"، من اللاتينية *gentilis*الكنسية، من *gens, gentis*، أمة. العبرانيين يسمون "goïm"(sing goï) غير اليهود. كلمة "païen" (من اللاتينية *paganus*، الفلاحون) أتى في وقت لاحق بعد ذلك بكثير.

لم يقتصر ارتباك **شاتوبرياند** على تواريخ هذه الشخصيات فقط ، ولكن أيضا، في المتحف و مكتبته **مع ديداسكالي** Didascalée ومكتبته الخاصة (إذ لابد أن يحتضن واحدة).

تأسس ديداسكالي (مدرسة ديداسكاليون) في عام 179 من طرف البطريارك الإسكندري **ديميتريوس**، الذي عين عليه **بانتين** (Pantainos)، الذي أصبح قديسا. **كليمنت** Clément و**أوريجانوس** Origène خلفاه في تدبيره. كان يلقن بها تعليما كلاسيكيا، يكملها تعليما مسيحيا. تم إنشاؤه لينافس تدريس المتحف، والذي يرمز إلى مدرسة (الفلسفة والأدب والفن والعلم) في الإسكندرية. هذه المدرسة الإسكندرانية، التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد،(وهنا لابد من التمييز بينها وبين مدرسة الإسكندرية المسيحية)، واستمرت حتى529 م، التأريخ الذي أمر فيه **جستنيان** Justinien إغلاق جميع المدارس الفلسفية.

في مكتبة المتحف،إذن، لم يستطع **يودور** أن يلتقي **بأرنوب** قرطاج، أثناسيوس الإسكندريAthanase d'Alexandrie، يوسابيوس القيساري Eusèbe de Césarée، **تيموثي** Timothée ، **بامفيل** Pamphile**...** "كل هؤلاء المؤلفين كانوا مسيحيين ملتزمين، تجمعوا هناك لإقناع القارئ غير المطلع.

لنواصل.

عندما يكون هناك حديث عن « *مستودع الأدوية وسموم الروح* »، **شاتوبرياند**، في مذكرة له، يوضح أنه في العبارة التاريخية، أضاف كلمة « **السم** »، لأنه- كما يقول- وهو صائب في ذلك، *يمكن للكتب أن تخفف على الروح، كما يمكن أن تسممه*.

دعونا ننتقل إلى الصور الجميلة، تقابل الأفكار، الاستعارات، ونأتي إلى الإشارة على قبر الإسكندر والتابوت الزجاجي الذي استبدل به بطليموس التاسع، التابوت من الذهب.

في رأي علماء الآثار بالإجماع، أن الإسكندر لم يدفن في غرفة المكتبة (لا أحد كان يحمل مثل هذه الفكرة المجنونة)، ولكن قد دفن في قبر خاص، **سوما** (الجسم)، أو **سيما** (علامة، نقطة معلم)، وتقع في المقبرة الملكية.

فوق هذا القبر، تم رفع معبد، حيث تتم طقوس العبادة المقدونية. **إيزيس** Isis، الإسكندر و الثعبان **ثاثوديمون** (عبقرية جيدة) كانت الآلهة الحامية للمدينة.

للتفكير مثل مؤلف **للعبقرية** المسيحية، وجب أن نتصور **نابليون** مدفونا في المكتبة الوطنية لباريس!

***

بطبيعة الحال، الأخطاء الآثارية والتاريخية والأنتربولوجية التي وقفنا عليها (كان بإمكاننا، بالتأكيد، العثور على أخطاء أخرى، كلما دققنا أكثر في هذا العمل)، وهذا لا يقلل ولا ينتقص من القيمة الأدبية **"**للشهداء**"**.

التأمل الملي، يدفعنا أن نقر بأننا مخطئين في البحث عن الاختلاف مع الرومانسي العظيم. لأنه- من بعد ومن قبل- أراد أن يقوم بعمل فني، ومن أجل هذا، بعض الافتراءات الطفيفة على التاريخ لا تعني الكثير.

لذلك، كأننا لم نقل أي شيئا، دعونا نأخذ مقام النقيب(بالمعنى القانوني) للدفاع عن هذا الفصل.

))))(((())))(((())))(((((

VI

مَنْ وراءَ الحطام؟

وبالمقارنة مع أثينا وروما، فإنه لم يتبق في الإسكندرية إلا العدد القليل جدا من آثار الماضي المشرق. ومع ذلك، فإن القدامى يتفقون على أن مدينة الإسكندر كانت مليئة عن آخرها بالآثار، البعض أكثر روعة من البعض الآخر.

كما أن أخبار الكتاب العرب لم تجف بالثناء عليها. المقريزي مقتنع بأن القرآن يشير إلى الإسكندرية عندما يتحدث عن المدينة "التي ليس لها نظير في العالم".

الزلازل وتصدعات الأرض، كما أوضحنا، وأيضا، غزو الرمال، والتعرية الطبيعية وفعل الزمن والتشوهات التي اقترفها الأشخاص العاميين أو المعادين، تمنحنا أسباب تردي هذه الآثار.

في القرون التي تلت عهد اليونان- الرومان وعهد البيزنطيين، نجد مواد متوفرة للبناء في هذه الأطلال، بما في ذلك

الحجر والرخام والأعمدة وغالبا ما أدرجت عناصر أخرى في مباني سكنية بسيطة.

ألم يُستخدم مدرج **الكولوسيوم** Colisée في روما، تحت الباباوات، لبناء القصور والكنائس؟ حتى اليوم الذي فيه، **بونوا الرابع عشر** (1740 - 1758) خصصه " لذكرى الشهداء"، حبا وشغفا ليسوع المسيح. وبدون هذا التدخل وهذا التكريس، لكان قد اختفى، مهما كانت عظمته، وَ لَكان قَدْ تحول إلى بنايات بسيطة.

أيضا، لا ينبغي أن نتفاجأ مما لحق آثار الإسكندرية القديمة، من تدمير وتشويه تدريجي، خلال هذا الماضي الطويل.

ونتيجة لذلك، فإن المكتبة يمكن أن يكون لسبب هدمها، عاملين: عامل الوقت والعامل البشري ككتلة بناءة. وكمية من الأحجام مثل هذه، للحفاظ عليها وترتيبها بحيث يمكن الرجوع إليها والعثور عليها بسهولة، تستوجب منشأة شاسعة، بقاعات فسيحة ومتعددة للعروض، لم يتبق شيء من هذا البناء الضخم، ولا نعرف حتى الموقع الحقيقي.

ولكن إذا كانت المؤسسة لم يبق لها أثر، ما هو مآل الكميات المهولة من الكتب؟ كيف ومتى اختفت؟ هُدم المبنى، أم تغيرت وجهته؟ مضمونه تفرق أم أحرق؟ هل تم توزيعه على المكتبات الخاصة؟ وفي هذه الحالة، لماذا لم نعثر- على الأقل- على بعض المخطوطات الإسكندرانية؟ ولم يتم اكتشافها في أي مكان، لا في المدينة نفسها ولا حتى في مدن أخرى حيث تم نقلها أو بيعها؟

الكثير من الأسئلة تتبادر إلى أذهاننا، نحتاج إلى دراستها بعناية.

*****

وفيما يتعلق بالمكتبة الملحقة، مصيرها لا يدع مجالا للشك.

أحرقت، مع كل **السرابيون،** في القرن الرابع، من طرف البطريرك **ثيوفيلوس،** دمرها تدميرا شرسا وشاملا، أصبحت حطاما ولم ينجو منها إلا بضعة أعمدة، لا تزال قائمة، على ما يبدو، قبل ثلاثة قرون. في البداية، التمثال الجميل و الضخم من **سارابيس** Sarapis، ثم مقبرة الحيوانات المقدسة، وتماثيل الفراعنة، البطالمة، الأباطرة والفلاسفة العظام ، وبطبيعة الحال، المكتبة الملحقة، المركز المماس للفكر الوثني، يتألف من البرديات، فإنها الأكثر قابلية للاشتعال.

من سارابيون، لم يتبق إلى اليوم، إلا عمود **ديوكليتيان** . وقد أفرزت الحفريات عن تمثالين **لأبي الهول** تركا في الموقع، عجل **أبيس** من الجرانيت الأسود، تم نقله إلى المتحف اليوناني-الروماني، وبعض أجزاء التماثيل، بعض المسلات الناخبات و فوتا السابقين.

إذا كان مصير المكتبة الملحقة- للأسف- لم يترك إلا قليلا من الشك، فماذا عن المكتبة الأم؟

في هذا المقام تبدو الأمور أكثر تعقيدا.

تأتي أول إشارة للحريق في **"حرب الإسكندرية"**، سنة 48 قبل الميلاد. **يوليوس القيصر**، المُحاصر من قبل الإسكندرانيين في قصر **لوشياس** Lochias (القصور والتكنات للبطالمة)، أَحرق أسطوله الخاص حتى لا يسقط في يدي **أشيلاس** Achillas، القائد العسكري الإسكندراني.

كان هذا الأسطول يتكون من 72 سفينة، دون حساب تلك التي أمر بها القيصر لأحواض بناء السفن المتواجدة في الخارج، على الرصيف المركزي للميناء الكبير. الأسطول كان راسيا بالقرب من نفس المكان.

اندلعت النار. انتشرت وتوسعت لتبتلع السفن، وقال انها امتدت، والرياح كانت عاملا مساعدا لتلحق أحواض بناء السفن، ومخازن الأخشاب، الملعب، الحبال و اللوحات. الأعمدة وشظايا الحطام كانت تتطاير في السماء والمنازل المجاورة أحاطتها النيران وحاصرتها.فألحقت بها أضرارا جسيمة.

ولكن لنذهب، إلى القول أن المكتبة أحرقت سيكون في الحديث مبالغة.

وكانت المكتبة مجاورة للمتحف، داخل المدينة، جنوب غرب **بروشيون** Brucheion ، على الطريق (Dromos) الرئيسية، مع، بينها ومكان الحريق، مباني عديدة من الرخام.

ما لحقه الضرر، كان المخطوطات التي قد تم تخزينها في المخازن الضخمة خلف الميناء، إما لأنهم وصلت للتو أو لأنها كانت تنتظر دورها للتصدير.لأن تجارة الكتب والمخطوطات في الإسكندرية، كانت مزدهرة ومكثفة.

فالإدعاء أن المكتبة الأم تم حرقها عن طريق الخطأ من قبل **يوليوس القيصر**Jules César، وجب نفيه. كما أن هناك اتهام آخر موجه ضد عمر بن العاص (الأوروبيون يسمونه عمرو)، الذي فتح مصر سنة 640 م بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. سوف نذكر القصة المعروفة، وسنرى مدى صحتها.

****

يذكر المؤرخ العربي أبو الفرج أن أحدا **جان فيلوبونوس** Jean Philoponos أصبح صديقا مقربا ل"عمرو". الذي طلب الإذن منه أخذ بعض المخطوطات من**"الكنز الإمبراطوري"**.

كان عمرو لا يقوم بإجراء، دون استشارة الخليفة. لهذا، أحال طلب **فيلوبونوس** إليه. الخليفة- دائما حسب زعم أبو الفرج- أعطى الجواب الشهير: **« إذا كانت هذه الكتب تحتوي على أشياء تنفعنا، ففي القرآن الكريم ما يغنينا. وإذا كانت تحتوي على أشياء أخرى، فإنها خطيرة وعديمة الجدوى. قم بحرقها... ».**

في البداية، نلاحظ أن هذه الرواية مصدرها وحيد ولم تقل إلا مرة واحدة *"hapax legomenon"*، في كل كتابات العصور

الوسطى. في الواقع، لا المعاصرون ولا المتخلفون من الكتاب كتبوا عن هذه الواقعة مرة أخرى. والتاريخ **لا يكتب** ب"**هاباكس ليغومينا**".

ثم يقول بعض المؤرخين أن **جان فيلوبونوس** Jean Philoponos مات قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بكثير...

وأخيرا، من الضروري دراسة شخصية الوحيدة التي أطلقت وحدها هذا الاتهام. أثقة هي؟ ما هو المصدر الذي استقت منه هذه الواقعة؟

عاش أبو الفرج ابن العبري (**غريغوري** Grégoire) من 1226م في 1286م. ابن طبيب يهودي تمرد على اليهودية واعتنق المسيحية[وهذه في حد ذاتا حال شاذة لقب ب"**بار هبريوس**" (ابن اليهودي). مسيحي يعقوبي،موحد،مؤمن بالله (monophysite)، كان راهبا في أنطاكية Antioche ، ثم أسقفا في حلب ورئيس الطائفة المشرقية، المؤرخ والطبيب والفيلسوف، كتب قصة عالمية بالسريانية، والتي، هو نفسه، قام بكتابة مختصر لها باللغة العربية. اشتهر في الغرب باسم **غريغوريوس أبو الفرج**.

أبو الفرج، إذن، كتب بعد فتح الإسكندرية من قبل العرب، في القرن الثالث عشر مع أن الفتح كان في القرن السابع. كيف يمكن أن لا نجد كاتبا ولا مؤرخا تطرق لهذا الحدث الهام قبله؟ حدث التدمير الكلي والطوعي للمكتبة الشهيرة التي كانت مختنقة كبير

بالمخطوطات، يمر في صمت وتكتم؟ حسب ادعائه، تم استخدام المخطوطات لحرقها من أجل تسخين أربعة آلاف من الحمامات العامة في الإسكندرية و لمدة ستة أشهر!!!

إذا افترضنا أن هذا الدمار- بالنار- قد حدث بالفعل وبهذه الفظاعة، واستمر لفترة طويلة، و تكرر الفعل ولمدة طويلة، فإنه أصبح معلنا، إذن، لابد للخبر أن ينتشر بسرعة، ولا يمكن أن يبقى في طي الكتمان.

كيف لم يتفوه مؤرخون تلك الحقبة بكلمة؟ وأعني، بالذات المؤرخين البيزنطيين، الذين يحقدون ويكرهون العرب لأخذهم منهم الإسكندرية، مثل هذا الحدث كان سيجعلهم مبتهجين وفرحين، إذا كان بوسعهم أن يعلنوا أن الغزاة الجدد لم يقدروا ولم يعرفوا قيمة هذا الموروث الثقافي؛ إلا أنه لا أحد منهم ألقى مثل هذا اللوم.

ولا ينبغي أن ننسى أن أبا الفرج كان مسيحيا من أصل يهودي والعامل الديني في المشرق لديه - حتى في يومنا هذا- أهمية كبيرة. وبالتالي لنحاول تركيب الأحداث التي ينبغي أن تكون قد وقعت في تلك الفترة:

الكاتب المسيحي، قليل الدقة العلمية، وجد المتعة لجعل على عاتق الدين المنافس، حوالي سبعة قرون بعد سقوط الإسكندرية، التهمة التي تفسر بطريقة تقليدية، إحراق المكتبة. وهذه الرواية لم تستطع رفع اللبس والغموض الذي اكتنف مصيرها.

بالفعل، منذ نهاية القرن الرابع الميلادي، المؤرخون الجدّيُون يضعون المكتبة في شموليتها، موقع الشكوك ، والتي ما كانت لتبقى كما كانت في سنواتها اللامعة. مخزونها، بالتأكيد، لم يختف تماما. ولكن بعد فقدانها، تدريجيا، الحماية التي أبقتها سليمة كانت أحجام ضخمة من المخطوطات تنهب لصالح فئات خاصة، النحاة والفلاسفة الوثنيين، وحتى الأديرة حيث بعض المؤلفين الذين أعلنوا عن اعتناقهم المسيحية – على سبيل المثال، أفلاطون الثاني Platon، فيلون Philon، الخ. - واصلوا تمتعهم بمكانتهم الاجتماعية.

مع الغزو الروماني، العديد من الأعمال الهامة تم إرسالها بالتأكيد إلى روما. الإسكندرية كانت تئن تحت وطأة حطامها وآثارها، خلال الاضطرابات والاضطهاد **لكاراكالا** Caracalla، أيضا، **أورليان** Aurélien في 270 م، وهذا الأخير دمر جزءا كبيرا من **بروشيون** Brucheion . ومن الواضح أن كل هذه الأحداث أثرت سلبا على المكتبة، دون تدميرها، لم تنجُ من أضرار جسيمة. لا ننسى أيضا أن المؤسسة الغريمة **ديداسكالي** Didascalée، لم تفوت الفرصة لإلحاق الأذى بها حتى أنها تفننت في إبداع أشكاله.

إن المجلدات التي صمدت حتى القرن السابع يحتمل أنها أحرقت في العصر العربي، عن غير قصد.

يجب ألا ننسى أن المكتبة كان عليها أن تواجه الديانتين الناشئتين، المسيحية والإسلامية. فالدين الوليد يكون حتما، متعنتا

ومتعصبا، وإلا سيخاطر بوجوده الذاتي وبتعريض معتقداته إلى الزوال والاضمحلال.

المسيحيون الأولون، بمجرد ما تم الاعتراف بدينهم رسميا من طرف **قسطنطين** Constantin، بدؤوا بكسر التماثيل وتدمير الكتب الفلسفية التي لا تتمشى وتصوراتهم، والأشياء ذات الطابع الوثني، وحرق المعابد، على الأقل، تلك التي لم تتحول إلى الكنائس.

العرب-لا بد من الاعتراف- لا تدمر حُبّاً في التدمير. يبدو أنهم حولوا بعض الكنائس إلى مساجد، لهذا السبب الدين الجديد، أيا كان هو ومن خلال نقل فرويدي، يسعى إلى الاستتباب في أماكن الدين الآخر. لكنهم لم يدمروا الأعمال الفنية، عن علم، بالأحرى، المخطوطات.

في هذتن الديانتين، المسيحية والإسلامية، بعد أن مرت الموجة الاندفاعية الأولى، أدركا قيمة المؤلفين القدامى، وبدءا في دراسة مؤلفاتهم، وعملا على ترجمتها. لم يكن هناك المزيد من الأفلاطونيين والفيلونيون من الآباء اليونانيين، وذلك بفضلهم، قد نجا العديد من أعمال **أفلاطون** (Platon) **وفيلون** (Philon). وإذا كان أرسطو قد ذاع صيته وكان واسع الانتشار في العصور الوسطى فيرجع الفضل في ذلك إلى المترجمين والشارحين المسلمين، والذين أنقذوا الكتاب اليونانيين الآخرين، من طي النسيان.

ولكن مرة أخرى، حدث ذلك عندما انتصر كل من الديانتين المعنيتين. المراحل الأولى للغزو العربي قد اعتمد بالضرورة على جنود بواسل، ومحاربين شداد، ولكن، من الممكن أنهم لم يكونوا مهتمين بالقيم الأدبية. ونحن، بالتأكيد، لا يمكن أن نتوقع أن العرب أرسلوا إلى الحرب جيشا من علماء الدين و ومولعون بجمع الكتب![كما في جيوش العالم وعبر التاريخ]، معظم هؤلاء الغزاة كانوا بدون ثقافة عامة - وهذا منطقي- لأنه بعد قرنين من الغزو، ظلت اليونانية، اللغة الإدارية للبلاد. يستخدمها معتنقي الديانة المسيحية من اليونانيين، الذين أصبحوا مسئولين.

يجب ألا نلوم هذه الفئة من المحاربين الذين كانوا فاتحين، للإسكندرية على إهمالهم للمكتبة وما كانت تحتويه من مخطوطات قيمة.

وهكذا ظلت المكتبة بدون حماية رسمية. يمكن أن تكون قد تعرضت للنهب بطريقة أكثر بشاعة من القرون السابقة، وبعض المخطوطات التي لم تكن تهم أحدا من الناس لربما كان مآلها التمزيق أو التهمتها النيران.

ولكن إذا كنا مقتنعين أن ورق البردي، ورقة رقيقة مصنوعة من القشرة الداخلية للقصب، ولا يمكن أن يعطي سوى نار التبن، تنطفئ بمجرد اشتعالها، إذن هذه المبالغة- تسخين أربعة آلاف من الحمامات ولمدة ستة أشهر- واضحة وصارخة.

لكل هذه الأسباب وجل المؤرخون، نعتقد أن الفقرة لأبي الفرج هي نزوة ذاتية للنيل من الدين الإسلامي.

ونعتمد في هذه المرحلة الاستنتاج- بحذر- للدكتور **إيف. بريشيا** (*Alexandrea ad ./Egyptum*, p. 43):

« لنفرض، كما لم يثبت ذلك، أن في وقت الغزو العربي، لم تكن المكتبة الكبرى موجودة ومن مدة طويلة، هذه القصة (قصة أبو الفرج) تحتوي على كثير من العناصر الأسطورية مما يجعلها لا ترقى إلى مستوى الثقة. الى جانب ذلك، كان **جان فيلوبونوس** ميتا، على ما يبدو، قبل غزو الإسكندرية من قبل العرب. ومع ذلك، أهي أسطورة كاذبة تماما، من نسيج الخيال أم فيها بعض الحقائق التاريخية، رغم ما فيها من مبالغة وتشويه؟» ويخلص **بتلر** Butler : « يجب أن نقول أن قصة أبو الفرج هي مجرد حكاية، معيبة، تماما، لأسس التاريخ »(*) من وجهة نظري، حتى لو أن الأسطورة تعني، ما يجول في خلدي ، هذا يعني؛ أن الفاتحين لم يحترموا مجموعات الكتب التي كانت قد نجت من الكوارث السابقة، والتي أفضت، في نهاية المطاف، تحت تصرفهم وسلطتهم، ولم يعملوا على الحفاظ عليها، لا يمكن أن أكون شديدا، قاسيا في الحكم عليهم.

إذ في تاريخنا الحديث، لما استولى الفرنسيون، على ***القسطنطينة*** Constantine، أحرقوا جميع الكتب والمخطوطات التي سقطت في أيديهم، وإذا كان الإنجليز بعد غزوهم **لماجدولا** Magdola، قد تخلوا عن أكبر جزء من المكتبة الحبشية الغنية، إذا كان ممثلو الدول الكبرى الأوروبية، القوية، فعلوا، ما فعلوه مؤخرا في الصين؛ من أين لنا الحق لكي نلوم ونعيب على العرب، في القرن السابع، فيما يتعلق بوثائق الأدب الكلاسيكي، نفس العقلية

التي يفكر بها الغربي حاليا؟ " (كتاب **بريكشيا** / صدر في عام 1914).

إلى الأمثلة التي قدمها **بريكشيا** ، سوف نضيف الحملة الصليبية الرابعة (1202 م - 1204م)، التي انتهت بالسيطرة على القسطنطينية المسيحية، مع، في نهاية المطاف، مباركة **البابا لروما** (*). دمر الصليبيون المدينة، وأجهزوا خاصة على التحف الفنية والكتب،التي كانت قد جمعت من طرف الأباطرة البيزنطية. من بين العجائب الأخرى،بروز تمثال بديع و ضخم، ، من البرونز، يمثل هرقل جالسا، من إبداع **ليسيبوس** Lysippe ، جد متوازن فوق محوره، بحيث يمكن تحريكه واستدارته بيد واحدة، قطعة فنية رائعة، لا تعوض، أذيبت، وتحولت قطعا نقدية. لنحكم على البقية والمخطوطات من بينها.....

(*) "يجب أن نعلن أن قصة أبو الفرج نقية خرافة، خالية تماما من أساس تاريخي. ج. بتلر، الفتح العربي لمصر، والصوم ثلاثون عاما من السيطرة الرومانية، أكسفورد، 1902.
(*) عندما نقول "بابا روما" نحن لا نلتزم لا بلوناسم. أول من يحصل على هذا اللقب وكان البابا بطريرك الإسكندرية في القرن الثالث. الأسقف روما لم تحصل عليه حتى القرن السابع. "البابا" يعني باللغة اليونانية "الأب". في هوميروس، يكتب مع ثلاثة أقدام: بابوس زيوس. O زيو بابا.

*

* *

إذا كان التاريخ لم يكن محايدا مع كل من قيصر وعمرو، ولم ينصفهما، وتمت إدانتهما مباشرة بتدمير المكتبة، لنتساءل، والسؤال مشروع، كيف اختفت هذه الكتلة من المخطوطات؟ إنه أمر لا يصدق.

يبدو من المفيد إعطاء كلمتين، في هذا المقام، لتفسير طريقة تصنيع البردي.

البردي (*papyrus cyperus*) هو نبات عشبي ضخم، زاحف، بجذع عاري، أوقف، مثلث في القمة، كبيرة كالذراع ويمكن أن يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أمتار. بالماضي كان موجودا بوفرة على ضفاف نهر النيل وفي مستنقعات دلتا.

نبتة ثمينة للغاية، وجذرها يستعمل للاشتعال ونخاعه، للطعام أو كفتيل للإضاءة. واستعمل أساسا من أجل الحصول على هذه المادة الموجهة للكتابة، وهذه المادة أخذت اسم النبتة التي تستخرج منها، البردي في اللاتينية (*papyrus*)، بابيروس باللغة اليونانية (*papyros* en grec)، والتي، من خلال تقلص الكلمة تشكل الكلمة "ورقة : *papier* ".

لصنع هذه الورقة، يتم إزالة اللحاء، ثم يتم فصل الرقائق التي تشكل الساق، بواسطة شفرات رقيقة، في حدود عشرة أو اثني عشر. تطرح الرقائق المحصل عليها وتمدد على طاولة على رطبة يتم لصقها من حافاتها، بسائل نجهل طبيعته، ليبقى سرا من أسرار تلك الحضارة. ثم يتم نشر طبقة جديدة من الرقائق، وتوضع- خلال ترتيبها- بشكل عمودي ويضغط الكل. هاتان الطبقتان تشكل ورقة واحدة. بعد تجفيفها في الشمس، يتم صقلها بعناية.

نكتب بقطعة صغيرة من القصب، مفلوق وحاد على مستوى الرأس. كان الحبر المستخدم عموما مستخرجا من الحديد أو السُّخام (سواد الصوف المحروق)، المذاب في الماء المصمغ.

يمكن لصق عدة أوراق طرف إلى طرف للحصول على البرديات بطول متر أو اثنين لنقيم منها لفة. أرقى البرديات،تأتي من الطبقات الداخلية للنبتة، كانت مقدسة أو **"هيراتيكية"** *hiératiques* . والأخريات ، الخشنة، يقال عنها **"لينوتيك"***lénéotiques* . كان المصريون متخصصون في صنعها منذ العصور القديمة جدا، بما أننا وجدنا بعضها يعود تاريخها إلى الأسرة الملكية الثامنة عشرة، أي قبل ثمانية عشر قرنا من عصرنا.

أردنا أن نوضح كيف يُصنع ورق البردي، لإثبات هشاشتها، وخاصة في المناخ الرطب مثل مناخ المدن الساحلية.

على المدى الطويل هذه الرطوبة تجعل الغراء اللاصق التي وحدت جميع رقائق البردي أقل فاعلية، من البداية كانت ذات حساسية، بطبيعتها، بما فيها الكفاية.

وبالإضافة إلى ذلك، كما هو مفهوم، هذه الطريقة في اللف والبسط لورق البردي، ساهمت على المدى الطويل في التفسخ والابتذال. إذا كانت ورق البردي ، عند الضرورة، قُطِّعَتْ على شكل مستطيلات، تُجَمَّعُ بمُلزمة لَيِّنَة، ثم تحمى بأغلفة سميكة- مثل ما كانت تُسَفَّرُ الكتب في وقت لاحق- لكانت مقاومتها للإهتراء والابتذال أكبر. ولكن هذه الممارسة من تكرار مستمر للفك و اللف ، أضف إلى رطوبة المدينة، يشرح جزئيا كيف أن المواد البردية للمكتبة قد تدهورت وأخيرا أُتلفت أو اختفت تماما، دون تدخل من **سيزار** وما يثبت أن**عمر بن العاص** كان بريئا مما لحق محتوى المكتبة كما تبرأ الذئب من دم يوسف.

نلمس، هنا، تأثير الانتقام، الذي هو بمثابة **قانون التعويض والتوازن،** وليس بالضرورة الانتقام، كما يعتقد عامة. بعد أن حظرت البطالمة تصدير البردي، نزلت العقوبة على الإسكندرية وتمثلت في إتلاف أجمل حليها، ألا وهي المكتبة.

وقد تم بالفعل كشف هشاشة البردي في العهد الروماني، وبعض الأباطرة أعطى أوامرهم لنسخ المخطوطات القديمة والمعرضة للإتلاف.

وعلى الرغم من دمار المكتبة على مر القرون، كان يعتقد البعض أن العديد من المخطوطات، على أي حال، قد انتهى بها المطاف في المتحف اليوناني - الروماني للإسكندرية. ولكن الأمر ليس كذلك. المخطوطات الأدبية أو الفلسفية قليلة جدا. بعض شظايا قليلة من **الإلياد** *Iliade*، وبعض الدراسات **الهومرية** scolies homériques، بعض شظايا من ترنيمة إلى **ديلوس دي كاليماشوس،** وبعض الشظايا الأخرى الكلاسيكية، كل شيء مختصر جدا.وهذا كل شيء .

من ناحية أخرى، هناك مخطوطات ذات طابع تطبيقي، عملي، إداري، تدبير منزلي، طلبات وشكاوى وعقود، شهادات، رسائل خاصة، وثائق قضائية، وصايا، الخ.

تم الاحتفاظ بهذه البرديات الأخيرة لأنها دفنت في الطبقات العميقة من **"قمم"** *kiman* ، طبقات لم تصل إليها الرطوبة. و Kom (الجمع *kiman*)، الكلمة العربية التي تعني التل، هي ارتفاع الأرض، تكون بطريقة طبيعية أو أنقاض منزل قديم، أو

بقايا الاستعمالات المنزلية من جميع أنواع أو شظايا الفخار الذي كان يستخدم كثيرا في العصور القديمة. ما يعادل في زمننا، المطارح العامة. الطبقات العليا، بقربها من الهواء الرطب، تستطع الحفاظ على المخطوطات، أحيانا ألقي بالمحفوظات بأكملها لأنها وجدت في حالة سيئة جدا. ولكن الطبقات العميقة،بعيدة عن الطوبة و خالية من المواد المدمرة، تم حفظ المخطوطات وحمايتها بدرجة عالية.

خلافا لمناخ الإسكندرية، مناخ مصر العليا، جاف كثيرا، مكن الحفاظ على هذه الوثائق الثمينة- على نحو أفضل- نذكر على سبيل المثال، في **أوكسيرينكوسبنيزا** OxyrhynkosBehnesa حيث تم العثور على كميات كبيرة من المخطوطات، وجدت في حالة جيدة جدا**...**

VII

الخلاصة

هاهي إذن العديد من أسباب التدهور والتدمير التدريجي للمكتبة، دون أن يكون من اللازم إدخال عامل "المشهد الكبير والتقليدي للحريق المهول"، بأمر من قبل ذاك الفاتح أو الآخر.

لنوجز هذه الأسباب في:

انتفاضات السكان ضد بعض أباطرة الرومان، الذين انتقموا لأنفسهم عن طريق تدمير **بروشيون** Brucheion، حيث تم إنشاء المكتبة. هؤلاء الأباطرة، بالطبع، لم ينالوا من المكتبة، ولكنها عانت على الأقل جزئيا من جراء هذه الأحداث، ومن هذه الأعمال الوحشية.

تدمير المسيحيين في بدايتهم لكل ما هو مناف لعقيدتهم، وأينما سنحت الفرصة للانقضاض على الأدب الوثني وحرقه.

اللامبالاة، من طرف الحكام الجدد للمدينة، عندالفتح العربي. اللامبالاة التي ساهمت في عدم تجديد المخطوطات المستخدمة أو المعرضة للإتلاف وحفظها من النهب التي تعرضت له من طرف قبل العامة من الأفراد.

طريقة تصنيع البردي ، أخف وزنا وأفضل في التسويق من ورق **البرشامين** parchemin ، ولكنه أكثر عرضة للضياع وسهل الإتلاف.

رطوبة مناخ الإسكندرية، إضافة إلى الاستعمالات المتكررة للمخطوطات تؤدي بالضرورة إلى، أن الأوراق تفصل وتعزل عن بعضها البعض، وعلى المدى الطويل، تجعل كل ذلك غير صالح للاستعمال.

لا شك، أن عدد مخطوطات مكتبة الأم، مكتبة الملحقة ومجموعات المخطوطات الخاصة، تجاوز في وقت ما، في الإسكندرية، المليون!!!

حاولنا أن نوضح كيف تم اختفاء الجزء الكبير، على الأقل من هذه الكتلة الهائلة من المخطوطات. نحن لا ندعي أننا بعد أن أعطينا الحل النهائي والمثالي والجواب الشافي، - نعم، لطالما هناك، يمكن أن يكون هناك حل وهو في علم الله.

و خلاصة القول، أليس أفضل أن تحافظ المكتبة الشهيرة على السر المزعج لاختفائها، اختفاء إجماليا وأن يظل مبهما؟

هذا الغموض وضع هذا الاختفاء من بين أعظم الأساطير والذي يشكل جزءا من المخزون الرائع الإنساني الذي تتناقله الألسن باعتباره، جهاز إرسال من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل،وفي الرواية يتصرف بزيادة أو نقصان،حسب ما تشتهيه الأنفس، وأنه، مثل حجاب **إيزيس** Isis ، سيكون افتراض تريد اختراقه.

BIBLIOGRAPHIE

- Ing. Saint-Denis, *Description de l'Egypte, Paris, 1829,*
- Description des antiquités d'Alexandrie et de ses environs.
- Jules Simon, *Histoire de l'Ecole d'Alexandrie,* Paris,

- Joubert Libraire-éditeur, 1845.
- E. Vacherot, *Histoire critique de l'Ecole d'Alexandrie,*
- Librairie philosophique de Lagrange, Paris, 1846.
- Mahmoud El-Falaki, *Mémoire sur l'antique Alexandrie,* Copenhague, 1872.

- Tassos Néroutsos, *L'ancienne Alexandrie,* Paris, 1888.

- Bouché-Leclercq, *Histoire des Lagides,* Paris, Ed. Leroux.

- Alexandre Rhangabès, *Dictionnaire de l'Archéologie grecque* (en grec), Athènes, Ed. A. Constantinidès, 1888.

- E. Breccia, *Alexandrea ad /Egyptum,* Bergame, Istituto italiano d'Arte grafiche, 1914.

- P. G. Elgood, *Les Ptolémées d'Egypte,* trad. franç. Robert

Bouvier, Payot, Paris, 1943. Abel Rey, *L'Apogée de la Science technique grecque,*

- Albin Michel, Paris, 1946.
- André Bonnard, *D'Euripide à Alexandrie,* Union Générale .d'Editions, Paris, 1964

.

- André Bernand, *Alexandrie la Grande,* B. Arthaud, Paris, 1966.

- Outre, bien entendu, les auteurs anciens: Strabon, Diodore, Philon, Plutarque, Pline l'Ancien, etc., ainsi que la Grande Encyclopédie et les Dictionnaires encyclopédiques Larousse.

جدول المحتويات

مقدمات نقدية.....10

الفصل الأول: المكتبات القديمة..... 11

الفصل الثاني: المتحف..... 15

الفصل الثالث: المكتبات القديمة..... 18

الفصل الرابع: بعض مديري المكتبة..... 25

الفصل الخامس: حكاية **يودور**..... 30

الفصل السادس: من وراء الحطام؟ 45

الفصل السابع: الخاتمة..... 61

المراجع 63

TABLE DES ILLUSTRATIONS

- Démétrius de Phalère (Musée de Florence)
- Inspirateur du Musée et de la Bibliothèque d'Alexandrie . . . .. Frontispice après la p. 4.

- Ptolémée 1er Sôter après la p. 18
- Les papyri après la p. 21
- La Colonne de Dioclétien après la p. 32

نهاية الطباعة على المطبعة

التجارية في

الإسكندرية، مصر، 15 مايو 1982

ترجمة الأستاذ محمد الحضان

نهاية الترجمة: الأربعاء 10 ربيع الأول 1439ه

امكتبة الإسكندرية القديمة.. ما المصير؟ – بقلم الدكتور قاسم عبده قاسم

دكتور تاريخ قسم - دار عين يوليو 23, 2014 عن طريق نشرت في مصر قاسم عبده قاسم

من حق زائر مكتبة الإسكندرية الجديدة أن يلقي نظره على مصير المكتبة القديمة, وأن يعرف من الذي جنى عليها ومن الذي اتهم بحرقها؟

كانت مكتبة الإسكندرية القديمة, التي بناها البطالمة الأوائل, أهم مؤسسة علمية وفكرية في العالم القديم. وقد ظلت المكتبة تلعب دورًا مهمًا في الأنشطة الفكرية والعلمية لشعوب شرق المتوسط على مدى عدة قرون. وكانت مقصدًا للعلماء والفلاسفة الذين قاموا بالدور الأهم في عالمهم عندما تدهور دور بلاد الإغريق في تلك الفترة التي يعرفها المؤرخون عموما باسم العصر الهيللينستي (أي العصر الذي جمع بين التراث الهيلليني, أي اليوناني والتراث الآسيوي), وهو العصر الذي يبدأ بفتوحات الإسكندر الأكبر وينتهي بمعركة اكتيوم في النصف الأخير من القرن الأول قبل ميلاد المسيح, فبعد هذه المعركة التي انتهت بانتحار كليوباترا السابعة ومصرع أنطونيوس بعد هزيمته تحولت مصر إلى ولاية رومانية, وصارت الإمبراطورية الرومانية تحكم حوض البحر المتوسط كله لدرجة أن الرومان أسموه (بحرنا).

وفي تلك الفترة تعرضت مكتبة الإسكندرية لحريق جزئي أثناء حملة يوليوس قيصر على الإسكندرية, لأن النيران التي اندلعت في السفن الراسية بالميناء امتدت إلى بعض أجزاء المكتبة, ولكن المكتبة ظلت تعمل بعد ذلك, بدليل أن استرابون الذي زارها بعد عدة سنين وصف الأنشطة والحياة داخلها. ثم تعرضت المكتبة لحريق يبدو أنه كان مدمرًا بحيث وضع نهايتها المأساوية أثناء حوادث الشغب التي قام بها المسيحيون في الإسكندرية أواخر القرن الرابع الميلادي ضد الوثنية ورموزها, وكانت مكتبة الإسكندرية من بينها بطبيعة الحال.

ثم جاء الفتح الإسلامي لمصر في النصف الأول من القرن السابع الميلادي, وقد عقد عمرو بن العاص اتفاقية مع البيزنطيين حدد فيها شروط جلائهم عن مصر فيما يعرف باتفاقية الإسكندرية الأولى, ثم نقض البيزنطيون اتفاقهم وحاربهم المسلمون وهزموهم مرة أخرى, وتجددت شروط الجلاء في اتفاقية الإسكندرية الثانية.

واللافت للنظر هنا أن كتب تواريخ الفتوح الإسلامية التي تناولت فتح مصر (البلاذري, والطبري, وابن عبدالحكم, ومن نقل عنهم من المتأخرين وأهمهم تقي الدين المقريزي), لم يذكروا شيئًا عن مكتبة الإسكندرية القديمة, سواء ما يتعلق بوجودها, أو وجود أطلالها, حتى أي إشارات عن حرقها وتدميرها, على الرغم من اهتمام هذه المصادر بذكر تفاصيل الحصار لحصن بابليون, والمعارك التي جرت في الإسكندرية وغيرها, بل إن ابن عبدالحكم تحدث عن خطط الإسكندرية ولكنه لم يذكر شيئًا عن المكتبة أو غيرها من الملحقات مما يشير صراحة إلى أنها لم تكن موجودة, كما أن أطلالها كانت قد اندثرت. وهنا ينبغي أن نشير أيضًا إلى أن المؤرخ الأسقف يوحنا النقيوسي, الذي كان شاهد عيان لأحداث الفتح الإسلامي لم يقل شيئًا عن أعمال عنف قام بها المسلمون ضد المكتبة على الرغم من أنه كان قاسيًا في الحديث عن المسلمين, ولم يكن متعاطفًا معهم بأي حال من الأحوال. كذلك لم يشر أي من المؤرخين المسيحيين الذين كتبوا عن تاريخ مصر, في سلسلة تمتد من أوائل الوجود الإسلامي في مصر حتى عصر سلاطين المماليك, إلى شيء يتعلق بمكتبة الإسكندرية القديمة (ساويرس بن المقفع, وابن العميد, ومفضل بن أبي الفضائل وغيرهم).

لكن المدهش أن أول ذكر لهذه القصة جاء على لسان عبداللطيف البغدادي الذي زار مصر سنة 595هـ/1200م في عبارة قصيرة, ثم وردت رواية تفصيلية لدى أحد المؤلفين المسلمين, وهو ابن القفطي الذي كتب في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي يضع مسئولية حريق مكتبة الإسكندرية القديمة على عاتق المسلمين. وقد نقلها عنه باختصار المؤرخ المسيحي (ابن العبري) دونما تعليق بعد عقود قليلة من الزمان.

وقد أثارت رواية ابن القفطي, بتنويعاتها المختلفة, كثيرًا من المناقشات وحفزت كثيرًا من الدراسات والبحوث, فقد أخذها بعض المؤرخين الغربيين وسيلة للهجوم على الإسلام والمسلمين من ناحية, كما أخضعها نفر آخر من هؤلاء المؤرخين للبحث والدراسة وأثبتوا عدم صحتها من ناحية أخرى. وأسهم عدد من المؤرخين العرب المعاصرين في مناقشة الموضوع وبرهنوا على أن الرواية التي ساقها ابن القفطي بعد عدة قرون من الفتح مجرد قصة ركيكة رديئة التأليف ومليئة بالثغرات والثقوب, وبدا الأمر وكأن نار المناقشات حول مصير مكتبة الإسكندرية القديمة قد باتت رمادًا.

بيد أن إحياء مكتبة الإسكندرية في السنوات الأخيرة, وتجسيد الحلم في هذه المؤسسة الرائعة, وأنشطتها الفكرية والعلمية والفنية أعادت لمدينة الإسكندرية قدرًا كبيرًا من بريقها المفقود, وأعادتها قبلة ومصدرًا لأفضل العقول وأجمل المواهب من أركان الدنيا. ولكن هذا الإحياء – من ناحية أخرى – جعل النقاش والجدل يتجدد حول مصير مكتبة الإسكندرية القديمة.

وربما يكون مناسبًا أن نورد رواية ابن القفطي عن مصير المكتبة, ثم نناقشها في محاولة للوصول إلى الصورة الأقرب للحقيقة, وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تنطلق من فرضية تنفي التهمة عن المسلمين, فإن حق القارئ يفرض علينا أن تكون المناقشة محايدة وموضوعية بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية.

تقول رواية ابن القفطي إن الحاكم المسلم الأول لمصر بعد الفتح, وهو عمرو بن العاص كان شديد الإعجاب بيوحنا النحوي بسبب حكمته وعلمه, كما كان معجبًا بآرائه في رفض الثالوث, ونهاية الزمان, وكان يحضر مجلسه ويستمع إليه ويتعلم منه!! ويستمر ابن القفطي ليقول إن عمرو بن العاص قال لهذا العالم المسيحي إنه مستعد أن يلبي له أي مطلب, فطلب منه يوحنا النحوي أن يأذن له بأخذ ذخائر مكتبة الإسكندرية من المخطوطات. وأجابه الحاكم المسلم بأنه لا يستطيع أن يفعل هذا دون موافقة الخليفة عمر بن الخطاب. وعندما أرسل للخليفة أجابه بأن (كتاب الله) يغني عما في هذه الكتب, وأمره أن يتخلص من الكتب!! ثم يقول الراوي إن عمرو بن العاص أمر بتوزيع مقتنيات مكتبة الإسكندرية على حمامات المدينة لكي تستخدم وقودًا لتسخين المياه بها, واستغرقت هذه العملية ستة أشهر.

هذه هي رواية ابن القفطي باختصار. وقد تصدى ألفرد بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) سنة 1902م لتفنيد هذه الرواية, وكان أهم ما ذكره أن يوحنا النحوي لا يمكن أن يكون موجودًا أيام عمرو بن العاص لأنه كان نشيطًا قبل هذا التاريخ بمائة سنة, وبذلك هدم الأساس الذي قامت عليه رواية ابن القفطي كما أن د.مصطفى العبادي أثبت أن المكتبة قد حرقت و هدمت مرة أثناء حرب الإسكندرية, ثم امتدت النيران إلى المكتبة, والمرة الثانية عندما قام الأسقف المتعصب ثيوفانس بتدمير السرابيون سنة 391م بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير.

رواية يعوزها المنطق

بيد أن هناك جوانب أخرى تجعل من هذه الرواية رواية ضعيفة متهافتة:

أولاً – أننا لو سلمنا جدلاً بأن يوحنا النحوي كان موجودًا زمن فتح مصر وأنه كان على علاقة طيبة بعمرو بن العاص, فهل كان يمكن أن يطلب مقتنيات مكتبة الإسكندرية التي استغرق حرقها, في جميع حمامات الإسكندرية, ستة أشهر؟ وهل كان يمتلك المكان الذي يتسع لكل هذه الكتب؟

ثانيًا – لماذا يلجأ عمرو بن العاص إلى إحراق محتويات مكتبة الإسكندرية بهذه الطريقة الغريبة التي استغرقت ستة أشهر – حسبما تقول الرواية – وهو أمر يتطلب متابعة من حاكم كان بحاجة إلى توطيد نفوذه في الولاية الجديدة؟ ولماذا لم يحرقها مرة واحدة في مكانها؟

ثالثًا – إذا سلمنا جدلاً بأن محتويات المكتبة تم إحراقها بهذه الطريقة الغريبة, فماذا عن مبنى المكتبة نفسه؟ هل تم هدمه؟ أم ظل باقيًا؟ ولماذا لم يتحدث عنه المؤرخون المسلمون الذين تحدثوا عن الآثار المصرية القديمة بشكل يشي بالانبهار والإعجاب؟ وقد كان عمود السواري بالإسكندرية من أهم الآثار التي كان المؤرخون والرحالة المسلمون يتحدثون عنها, فإذا كانت المكتبة أو أطلالها, موجودة لما أغفلوا الحديث عنها بطبيعة الحال؟!

رابعًا – لم يتخذ المسلمون موقفًا معاديًا طوال تاريخهم الثقافي ضد التراث الثقافي والعلمي الإنساني, بل إن حركة الترجمة من تراث الإغريق والفرس والهنود والصينيين تحت رعاية الدولة, تؤكد أن الرواية التي رواها ابن القفطي تقف ضد طبيعة الأشياء وتعادي منطق التاريخ.

خامسًا – التناقض الصارخ في موقف (عمرو بن العاص) – حسب رواية ابن القفطي – لا يمكن أن يكون حقيقيًا, فكيف يمكن لرجل معجب بالعلم والحكمة التي يتمتع بها يوحنا النحوي بحيث يجلس منه مجلس التلميذ والمريد, أن يأمر بحرق الكتب التي تحتضن الحكمة والمعرفة بين صفحاتها؟!

ولكن يبقى السؤال الأهم مطروحًا: لماذا يكتب عبداللطيف البغدادي وابن القفطي وابن العبري هذه الرواية التي ينسبون فيها تدمير مكتبة الإسكندرية القديمة إلى عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب؟

لابد أولاً أن نستبعد رواية كل من عبد اللطيف البغدادي, ورواية ابن العبري, على أساس أن الأول ذكر عبارة قصيرة للغاية عنها في معرض حديثه عن عمود السواري تشي بأنه سمعها من أحد, ولم يحقق فيها, وهو على حال رحالة لم يدقق كثيرًا فيما أورده من أخبار في كتابه (الإفادة والاعتبار), كما أن الثاني أورد رواية ابن القفطي نفسها في صورة مختصرة دون أن يتدخل فيها, وربما يكون قد نقلها عنه أو عن مصدر مشترك لهما.

تفسيرات أخرى للرواية

تبقى رواية ابن القفطي: وهي مركبة من ثلاثة أجزاء: الجزء الأول منها سبق أن أورده ابن النديم في الفهرست وهو الخاص بتأسيس المكتبة ومن يدعى زميرة المسئول عنها, والقسم الثاني ورد لدى أحد المؤرخين البيزنطيين. وهكذا فإن هذين القسمين ليست لهما أهمية تتعلق بقصة تدمير مكتبة الإسكندرية, أما القسم الثالث, فهو جزء صاغه ابن القفطي صياغة خيالية على شكل حوار بين عمرو بن العاص ويحيى النحوي, وهو ما يشكك في الرواية أصلاً.

فضلاً عن أن القصة نفسها تقريبًا جرت حول فتوح فارس والعراق وبالعبارات نفسها مع تغيير الأسماء, وهو الأمر الذي يشي بأنها كانت نوعًا من الفولكلور المتداول آنذاك, ويذكرنا بروايات أخرى مماثلة في موضوعات متنوعة, كانت من تقاليد الكتابة التاريخية العربية في تلك العصور.

والكتاب الذي وردت فيه هذه الرواية – من ناحية أخرى – وهو الذي يحمل عنوان (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) عبارة عن كتاب تراجم موجزة, فيه الكثير من الأخبار الأسطورية التي أوردها ابن القفطي باعتبارها من الحقائق التاريخية.

يقودنا هذا إلى الإجابة عن السؤال, لماذا أورد ابن القفطي هذه القصة الغريبة؟

يرى البعض أن الرجل الذي عمل في خدمة الأيوبيين هو وأبوه, رأى استياء الناس مما فعله صلاح الدين الأيوبي بمكتبة القاهرة حينما باع محتوياتها في مزاد علني كان يعقد مرتين أسبوعيًا, ثم هدم (دار الحكمة) وبنى محلها المدرسة الشافعية في غمرة حماسته لاستئصال المذهب الشيعي من مصر, وأن ابن القفطي أراد أن يقول إن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب سبق أن أحرق مكتبة الإسكندرية, فالبيع أهون من الحرق على أي حال.

وهناك رأي آخر يرى أن الشيعة أذاعوا قصة حرق المكتبة على يد عمرو بن العاص بأوامر من عمر بن الخطاب مما يؤكد أن السنّة معادون للعلم والمعرفة, لاسيما أن هذه القصة كانت رائجة في الفترة الانتقالية ما بين نهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية. وقد نقلها ابن القفطي كما سبق أن نقلها عبد اللطيف البغدادي دونما تحقيق.

وعلى الرغم من أنني أميل إلى الأخذ بالتفسير الثاني, لاقترابه من المنطق وسياق الأحداث التاريخية, فإنني أرى أن ابن القفطي أورد الرواية دون أن يكون في ذهنه أي رسالة يمكن أن تحملها, فقد نقلها باعتبارها قصة متداولة, ولم يحاول أن يتوقف أمامها كما فعل في الكثير من الأساطير التي دخلت في ثنايا صفحات كتابه. وعلى أي حال, فإن قصة تدمير مكتبة الإسكندرية القديمة تبقى دليلاً صارخًا على سوء استخدام التاريخ لحساب السياسة في الماضي وفي الحاضر على السواء.

لموافق 29 نوفمبر 2017م